الفصل الثالث

جهود العلماء والفقهاء في الجهاد ضد الصليبيين حتى نهاية الحركة الصليبية عام 690هـ/ 1291م

- اشتراك الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين بعد معركة حطين في عكا وبيت المقدس.
- دور الفقهاء والعلماء في بيت المقدس بعد استردادها من الصليبيين.
- تأييد كبار العلماء والفقهاء لرأي صلاح الدين أثناء استرداده الثغور الساحلية من الصليبيين.
- دور العلماء والفقهاء في القضاء على فتور حركة الجهاد بعد استرداد المسلمين لبيت المقدس.
- دورهم أثناء حصار الصليبيين لعكا في الحملة الصليبية الثالثة.
- علاقتهم بأبناء البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين وأثر ذلك على حركة الجهاد ضد الصليبيين.
- موقف العلماء والفقهاء من وصول الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط عام 615هـ/ 1218م.
- استنكارهم موقف السلطان الكامل محمد بن العادل عند تسليمه بيت المقدس إلى الامبراطور فردريك الثاني.
- دور العلماء والفقهاء في تصفية خلافات البيت الأيوبي في مصر والشام.
- موقفهم من وصول الحملة الصليبية السابعة إلى مصر عام 645هـ/ 1248م.
- دور الفقهاء والعلماء في التقريب بين بعض زعماء المسلمين في مصر والشام.

obeikandi.com

- أثر وجود الخطر المغولي في بلاد الشام، على جهاد فقهاء وعلماء المسلمين ضد الصليبيين.
- اشتراكهم في حملات السلطان الظاهر بيبرس ضد الحصون الصليبية في بلاد الشام.
- جهادهم في عصر السلطان المنصور قلاوون.
- دورهم في استعادة عكا وبقية الحصون الصليبية من أيدي الصليبيين في عهد السلطان الأشرف خليل عام 690هـ/ 1291م.

obeikandl.com

بعد أن حقق المسلمون انتصارهم الكبير على الصليبيين في موقعة حطين، استقر رأي السلطان صلاح الدين على استكمال الجهاد ضد الصليبيين واستعادة المدن الشامية منهم مرة أخرى. فلاقى التأييد التام له من قبل جموع الفقهاء والعلماء، فكان يستشيرهم ويأخذ بآرائهم.

وقد بدأ صلاح الدين هذه الفتوحات بمدينة عكا يوم الجمعة الثاني من جمادى الأولى سنة 583هـ/ 1187م، لأنها طريق الموصل إلى بيت المقدس من ناحية، وحتى يضمن بفتحها قطع الامدادات التي تصل عن طريقها من أوروبا إلى الصليبيين ببيت المقدس. من ناحية أخرى[1].

وقد شارك في هذا الفتح عديد من الفقهاء والعلماء. يأتي في مقدمتهم القاضي الفاضل، والفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي[2]. والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري. فبعد أن تم لصلاح

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 149، ابن شداد: المصدر السابق، ص 64، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 86، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 201، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 94، انظر أيضاً:
Geoffry de Vinsauf: Op. Cit., pp. 73-76, Stevenson: Op. Cit., p. 249.

(2) هو عبد اللطيف بن عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عموية أبو محمد بن الشيخ أبي النجيب السهروردي. ولد سنة 534هـ ببغداد، وتفقه على أبيه، سافر إلى خراسان، ودخل ما وراء النهر، فوفد على الملك الناصر صلاح الدين، فولاه قضاء كل بلد فتحه من السواحل وغيرها، ثم سافر إلى بغداد فأقام بها مدة، ثم سافر إلى إربل، وأقام بها إلى حين وفاته. سمع من أبي البدر الكرخي وأبي القاسم علي بن عبد السيد بن الصباغ، =

الدين فتح مدينة عكا. قام القاضي الفاضل بتحويل الكنيسة العظمى بها إلى مسجد جامع، وأمر ببناء القبلة والمنبر ثم أقيمت به صلاة الجمعة. ويذكر ابن الأثير في هذا الصدد أنها «أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الفرنج»[3] وقد تولى آنذاك الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي أمر الخطبة والإمامة. ثم أسند إليه صلاح الدين بعد ذلك مناصب الخطابة والقضاء والحسبة والوقف في مدينة عكا[4].

أما الفقيه عيسى الهكاري فقد كان ملازماً لصلاح الدين في غزواته وفتوحاته، ولهذا فقد خصص له السلطان بعد فتح عكا كل ما يتعلق بجماعة الفرسان الداوية من منازل وضياع، ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع تكريماً له واعترافاً بمكانته ومشاركته في الجهاد ضد الصليبيين، وتشجيعاً لاستمراره في البذل والعطاء لهذه الفريضة[5]. فكان هذا التصرف من صلاح الدين بادرة لم يسبقه إليها غيره. وكانت هذه المنحة خلاف ما وزعه صلاح الدين على المجاهدين من أموال الفيء والغنيمة التي اغتنمها المسلمون من وراء هذا الفتح.

وقد استكمل صلاح الدين الأيوبي فتح بقية مدن الشام الواحدة تلو الأخرى، حتى أنه لم يبق في أيدي الفرنج من هذه المدن من جبيل إلى

= وأبي الفضل محمد بن عمر الأرموي وغيرهم. توفي في جمادى الأولى سنة 610هـ. السبكي: المصدر السابق، ج 8، ص 312.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 149.

(4) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 90، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 252، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 87، ص 120، الحنبلي: المصدر السابق، ص 122.

(5) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 90، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 149، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 52، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 94، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 201، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 94، الحنبلي: المصدر السابق، ص 122، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 287.

أوائل حدود مصر سوى القدس وصور[6]. وعندئذ اطمأن السلطان إلى سوء موقف الصليبيين في بيت المقدس إذا ما تعرضوا لهجوم شامل من قبل المسلمين، خاصة بعد أن سقط منهم أعداد كبيرة من الأسرى والقتلى بيد صلاح الدين في فتوحاته السابقة. ولذلك توجه صلاح الدين إلى بيت المقدس لتخليصها من أيدي الصليبيين.

وقد أجمعت المصادر الإسلامية على اشتراك أعداد كبيرة من الفقهاء والعلماء مع صلاح الدين في فتح بيت المقدس على حد تعبير مؤرخيها «قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور»[7].

وكان الشيخ أبو عمر بن قدامة المقدسي[8]، وأخوه الشيخ موفق الدين[9] ابن قدامة، ممن شاركوا في هذا الفتح، وكانا من العلماء الفضلاء

---

(6) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 91، انظر أيضاً:
Stevenson: Op. Cit., pp. 249-251.

(7) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 130، ومما يؤسف له أن المصادر لم تركز على أي دور فعال لأحد هؤلاء العلماء والفقهاء ممن شاركوا في عملية الفتح.
ولمزيد من التفصيلات عن عملية استرداد المسلمين لبيت المقدس راجع ابن شداد: المصدر السابق، ص66، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 92، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 343، الحنبلي: المصدر السابق، ص 129.

(8) هو محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي. كان من صفوة علماء عصره، قرأ القرآن بحرف أبي عمرو، وحفظ مختصر الخرقي في الفقه، وقرأ النحو على ابن بري بمصر، وسمع الحديث بدمشق ومصر، واشتغل بالعبادة عن الرواية، وكتب الحلية لأبي نعيم، وتفسير البغوي والمغني لأخيه الموفق، والإبانة لابن بطة... وكان يجاهد في سبيل الله ويحضر الغزوات مع صلاح الدين، توفي سنة 607هـ/ 1210م. لمزيد من التفصيلات عنه راجع: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 356 ـ 357، أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 71 ـ 75، ابن الكثير: المصدر السابق، ج 13، ص 64 ـ 66، الذهبي: المصدر السابق، ج 18، ص 286 ـ 300، ابن رجب: المصدر السابق، ج 2، ص 52 ـ 61.

(9) هو شيخ الحنابلة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين. كان إماماً من أئمة المسلمين، وعلماً من أعلام الدين في العلم والعمل، صنف كتباً كثيرة في الفقه وغيره. مولده في سنة 541هـ/ 1146م، سافر إلى بغداد مرتين، =

ذائعي الصيت، وعلمان من أعلام الدين في العلم والعمل، حضرا مع صلاح الدين تلبية الجهاد في سبيل الله لنصرة الإسلام والمسلمين، قال ابن كثير في ذلك «وكان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني[10] وأخوه الشيخ العماد[11]، لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها[12].

= تفقه على مذهب الإمام أحمد، وعاد إلى دمشق، وكان إماماً في فنون، ولم يكن في زمانه بعد أخيه أبي عمر والعماد المقدسي أزهد ولا أروع منه، وقد تتلمذ على أيدي كثير من علماء عصره أمثال الشيخ عبد القادر، وأبا الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سليمان، وأبا ذرعة، وأبو الفرج ابن الجوزي، توفي بدمشق سنة 620هـ/ 1223م.

انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ص 139 ـ 141، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 107، ابن رجب: المصدر السابق، ج 2، ص 133 ـ 149، ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 1، ص 433 ـ 434، انظر أيضاً رضا كحالة: المرجع السابق، ج 6، ص 30.

(10) هو أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي، وهو ابن خال موفق الدين بن قدامة. قرأ عبد الغني القرآن وسمع الحديث الكثير وسافر إلى الأمصار، وكتب كثيراً وصنف، وقدم بعلبك هو والموفق سنة 560هـ/ 1164م فأنزلهما الشيخ عبد القادر في مدرسته، وكان ميل عبد الغني إلى الحديث، فكان أوحد زمانه فيه. واشتغل في الفقه على يد أبي الفتح ابن المنى، وكان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة برواق الحنابلة من جامع دمشق، ثم ترك دمشق إلى بغداد، ثم ارتحل إلى مصر ومات بها سنة 600هـ/ 1203م. ومن مصنفاته «الكمال في أسماء الرجال» و«الأحكام الكبرى والصغرى».

أبو شامة: المصدر السابق، ص 46 ـ 47، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 42 ـ 43، ابن رجب: المصدر السابق، ج 1، ص 5 ـ 34، الزركلي: المرجع السابق، ج 4، ص 160.

(11) هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، الإمام العلامة الشيخ العماد، كان فقيهاً مفتياً، سافر إلى بغداد وقرأ القرآن على أبي الحسن علي بن عساكر بن المرحب البطائحي وغيره، وتفقه في بغداد على أبي الفتح ابن المنى، وأفتى وناظر، وسمع الحديث الكثير ببغداد ودمشق. وكان يقرأ القرآن والفقه دائماً في الحلقة بجامع دمشق. صنف كتاب الفروق بين المسائل الفقهية، وكتاب الأحكام. وتوفي بدمشق سنة 614هـ/ 1217م. انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ص 104 ـ 106، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 84 ـ 85، ابن رجب: المصدر السابق، ج 2، ص 93 ـ 106.

(12) ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 65.

ولم ينس صلاح الدين في غمرة هذه الفرحة بهذا الفتح العظيم وزيره ومستشاره القاضي الفاضل الذين منعه مرضه من حضور فتح بيت المقدس. وكان مقيماً بدمشق. فأرسل إليه صلاح الدين رسالة يبشره فيها بهذا الفتح، ومن خلال كلمات هذه الرسالة يتضح مدى ما كان يكنه صلاح الدين من حب واحترام وتقدير لهذا القاضي الأجل، متمنياً لو أنه كان بحضرته في هذا الوقت حتى تتم فرحته بما منّ الله به عليه من نصر(13).

وبعد إن منّ الله على صلاح الدين بفتح بيت المقدس في يوم الجمعة 27 رجب سنة 583هـ/ اكتوبر 1187م، قام بتفريق الأموال التي أخذت من الصليبيين نظير افتداء أنفسهم وأرواحهم على الأمراء والعلماء والفقهاء الذين حضروا معه هذا الفتح، وبلغت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار(14). ثم جلس بمخيمة ظاهر القدس على هيئة التواضع وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم لتلقي التهاني بهذا الفتح العظيم(15).

---

(13) ومما ورد في هذه الرسالة: «وما كان يعوزنا ويعوزه إلا حضور المجلس السامي أسماه الله، فما لهذا الأمر رواء إلا بروائه، ولا للأنس لقاء إلا بأنس لقائه، وكاد يتصحف الفتح لولا دعائه، وحسن آلائه. والحمد لله الذي خصنا بهذه الخاصية، وفضلنا بالنصرة القدسية، وذخر لنا هذا البر الذي عجز بل قصر عنه ملوك البرية، والحمد لله على هذه النعمة السنية فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وما أظمأنا وأظمأه إلى خصوص الري به وعمومه، ويلحظ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وما آنق روضه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته، ونحن نعرف أن همته العالية تحدوه، وأن دينه إلى إجابة دعوته تدعوه، ونسأل الله أن يكمل صحته وينعش قوته، ويقوي نهضته، وما أقمنا بهذا البلد إلا لتطهيره وترتيب أمره وتدبيره».

انظر: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 255، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 99.

(14) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 254، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 147، الحنبلي: المصدر السابق، ص 129، انظر أيضاً: رنسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 749 ـ 754.

(15) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 130، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 96، انظر أيضاً:

Stevenson: Op. Cit., p. 254.

وقد قام الشعراء من العلماء والفقهاء يهنئون صلاح الدين بهذا الفتح المجيد بقصائد من الشعر يعبرون من خلالها عن مدى سعادتهم بهذا النصر المبين، وكان منهم الشاعر المشهور القاضي ابن سناء الملك[16].

وجدير بالذكر أن القاضيين الفاضل ومحيي الدين الزكي[17] كانا ضمن نخبة العلماء والفقهاء الذين تنبأوا واستبشروا خيراً بفتح بيت المقدس على

---

(16) هو القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك أبي عبد الله محمد بن هبة الله بن محمد السعدي، الشاعر المصري المشهور، صاحب الديوان الشعري البديع والنظم الرائق، أحد الفضلاء والرؤساء النبلاء قرأ القرآن على الشريف أبو الفتوح الخطيب، وقرأ النحو على العلامة ابن بري. أخذ الحديث عن الحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصفهاني. واختصر كتاب «الحيوان» للجاحظ، وله كتاب مصايد الشوارد، وجمع شيئاً من الرسائل الدائرة بينه وبين القاضي الفاضل. وكتب في ديوان الإنشاء مدة. وتوفي بالقاهرة سنة 608هـ/ 1211م.

انظر ابن خلكان: المصدر السابق، ج 2، ص 61 ـ 66، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 35، الذهبي: المصدر السابق، ج 18، ص 335 ـ 337، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 194، الحنبلي: المصدر السابق، ص 150 ـ 151، أما عن قصيدته كاملة فانظر ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 234 ـ 236.

(17) هو أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي ـ الملقب محيي الدين ـ المعروف بابن زكي الدين، الدمشقي الفقيه الشافعي، ولد سنة 550هـ بدمشق، وكان معظم أجداده قد تولوا القضاء بدمشق، سمع من والده، وعبد الرحمن بن أبي الحسن الداراني، والضياء بن هبة الله بن عساكر، وجماعة روى عنه الشهاب القوصي، والمجد ابن عساكر، وجماعة وحدث عنه بالإجازة أحمد بن أبي الخير، وكان فقيهاً، أديباً، منشئاً، بليغاً، فصيحاً، وكان عالماً صارماً، حسن الخط واللفظ، اشتغل ابن الزكي على القاضي شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، وناب عنه في الحكم، وهو أول من ترك النيابة. وهو أول من خطب بالقدس لما فتحه صلاح الدين، ثم تولى قضاء دمشق وأضيف إليه قضاء حلب أيضاً. وكان ناظر أوقاف الجامع. وكان يحفظ العقيدة المسماة بالمصباح للغزالي ويحفظها أولاده أيضاً ودرس بالمدرسة النورية وكان له درس في التفسير يذكره بالكلاسة تجاه تربة صلاح الدين وتوفي بدمشق سنة 598هـ. انظر: أبو شامة: الذيل، ص 31 ـ 32، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 229 ـ 236، السبكي: المصدر السابق، ج 6، ص 157 ـ 159، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ج 36، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 4، ص 337.

أيدي المسلمين فأرسلا إلى السلطان صلاح الدين يبشرانه بذلك[18]. وقد ورد ذلك في قصيدة ابن الزكي التي نظمها بمناسبة نجاح صلاح الدين في ضم حلب إلى الوحدة الإسلامية عام 579هـ/ 1183م حيث قال:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر: مبشر «بفتوح القدس في رجب[19].

ويعد هذا البيت من الاتفاقات العجيبة، ومن الفأل الحسن، نطق به القاضي ابن الزاكي وبشر فيه بفتح القدس في رجب، وكانت إرادة الله أن يفتح بيت المقدس في رجب سنة 583هـ/ بعد تلك البشارة بأربع سنوات. ولعل تلك البشارات التي بشرت بفتح القدس كانت دافعاً وإلهاماً لصلاح الدين أن يجتهد في فتح بيت المقدس في هذا التوقيت المبارك الذي يوافق ليلة الإسراء والمعراج.

وعلى الرغم أن فتح بيت المقدس قد تم يوم الجمعة، فلم يستطع المسلمون إقامة شعائر الصلاة في ذلك اليوم[20]، لأن المسجد الأقصى كان بلا منبر، وكان جماعة الفرسان الداوية قد بنت أمام محرابه جداراً وتركوه مخزناً للغلال نكاية في المسلمين ولذلك أمر صلاح الدين بعد أن تسلم القدس بهدم الأبنية المقامة أمام المحراب وأن يعمل منبراً للمسجد ـ ولما علم أن نور الدين محمود كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه واتقانه، لينصبه في بيت المقدس، وبعد أن انتهوا من ذلك حملوه

(18) الحنبلي: المصدر السابق، ص 126.

(19) شاهنشاه بن أيوب: المصدر السابق، ص 283، محمد بن شاهنشاه: المصدر السابق ص 143 ـ 144، الفتح البنداري: سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة 1979م، ص 226، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 240، أبو شامة: الروضتين، ج 2، ص 46، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 229، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 281.

(20) الفتح البنداري: المصدر السابق، ص 311 ـ 312، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 107، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 57.

من حلب ونصب بالقدس[21].

وكانت أول جمعة تقام في بيت المقدس بعد فتحه في رابع شعبان سنة 583هـ/ 9 أكتوبر 1187م. وتنافس الفقهاء والعلماء في إعداد الخطب لهذه الجمعة، وكثر المرشحون للخطابة، وكلهم يريد الفوز بهذا الشرف العالي وهذه الرتبة العظيمة. ومنهم من يقول: «ليتني خطبت في الجمعة الأولى، وفزت باليد الطولى، وإذا ظفرت بطالع سعدي، فما أبالي بمن يخطب بعدي»[22]. ولكن السلطان صلاح الدين نصب القاضي محي الدين بن الزكي لهذا الشرف تكريماً له على بيت الشعر الذي سبق أن مدح به صلاح الدين عند فتحه حلب والذي بشره فيه بفتح القدس في رجب، ولمكانته ومكانة أسرته العلمية وصرامته في الحق، وفضائله العديدة في الفقه والأدب[23]. فضلاً عن أنه كان يتمتع بموهبة فريدة وأسلوب بديع في نظم الخطب وإثارة حماس المستمعين له[24].

وخطب القاضي ابن الزكي، خطبة بليغة في المسلمين بالمسجد الأقصى، أورد فيها فضل البيت المقدس، وبين تاريخ المسجد الأقصى من أول تأسيسه إلى أن طهر على يد صلاح الدين من تدنيس الكافرين، ودعا

(21) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 158، الفتح البنداري: المصدر السابق، ص 314 ـ 315، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 108 ـ 109 وص 112 ـ 113، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 58.

(22) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 138، الفتح البنداري: المصدر السابق، ص 314، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 108، انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 756 ـ 757، انظر أيضاً:

Stevenson: Op. Cit., p. 254.

(23) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 139، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 158، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 254، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 108 ـ 109، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 218 ـ 219، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 58.

(24) ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 229.

الخليفة العباسي والسلطان صلاح الدين صاحب الفتح، وحمد الله كثيراً على هذا المن العظيم[25].

كما أنه أخذ يحث المسلمين في خطبته على مواصلة الجهاد في سبيل الله قائلاً لهم: «فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم، بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، وأحذروا من أتباع الهوى، وموافقة الردى، ورجوع القهقرى، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقى من الغصة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خير عباده، وإياكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الشيطان، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم في مواطن الجلاد، لا والله ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم، فاحذروا عباد الله ـ بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل، وخصكم بهذا الفتح المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين ـ أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، وكالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين، والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، اذكروا أيام الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جدوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله، فقد نادت الأيام بالثأرات الإسلامية والملة المحمدية، الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر، وأعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمة فاخرجوا لها همكم وأبرزوها، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا

(25) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 139 ـ 140، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 108 ـ 109، وص 110 ـ 111، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 346 ـ 347.

العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾[26]. أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده. ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾[27]»[28].

وبعد أن قضيت الصلاة في ذلك اليوم أسند السلطان صلاح الدين إلى الفقيه الواعظ زين الدين أبو الحسن علي بن نجا[29] بأن يعتلي منبر الوعظ ليعظ المسلمين الذين فرغوا من الصلاة، وجلس السلطان أمامه يستمع مع المسلمين لوعظه، وكانت عباراته حلوة مؤثرة أبكت المسلمين، فأخذ يعظ الناس بكل موعظة تنجيهم في الدنيا والآخرة ويحثهم على مواصلة الجهاد بعد أن وصفه وتحدث عن فضائله[30].

وهكذا يتضح لنا مما تقدم مدى عظم الدور الذي قام به الفقهاء والعلماء عند فتح بيت المقدس، حيث انضموا إلى صفوف المجاهدين، متطوعين بدافع من حميتهم الدينية، جاؤوا من كل مكان وحملوا السلاح وراء صلاح الدين لتحرير القدس الشريف يحدوهم الأمل في النصر أو الشهادة. وكلل الله جهودهم بالنصر وبعودة القدس والمسجد الأقصى إلى

---

(26) سورة الأنفال، آية 65.

(27) سورة آل عمران، آية 160.

(28) أبو شامة: المصدر السابق، ج2، ص 111، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 234 ـ 235، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 224 ـ 225، الحنبلي: المصدر السابق، ص 134 ـ 135.

(29) انظر ترجمته فيما سبق، ص 180 من هذا البحث.

(30) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 140، الفتح البنداري: المصدر السابق، ص 315، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 109 ـ 110، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 347، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 123، العليمي: المصدر السابق، ج 2، ص 592 ـ 593.

المسلمين. ولم يتوقف دورهم بعد ذلك، وإنما كان هذا الفتح دافعاً قوياً لهم ورافعاً لروحهم المعنوية، وهذا ما أدركناه في خطبة القاضي ابن الزكي الذي أخذ يحث المسلمين على مواصلة طريق الجهاد حتى يتم تطهير جميع البلاد الإسلامية من دنس الأعداء، كما أدركنا ذلك أيضاً في الوعظ الذي قام به الفقيه ابن نجا.

ومن الأعمال الجليلة الأخرى التي قام بها الفقهاء والعلماء في بيت المقدس بعد فتحها ما قام به الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري من صنع شبابيك من حديد للصخرة المقدسة لصيانتها من أي عبث بعد أن أزال عنها السلطان صلاح الدين ما أقامه الصليبيون من منكرات وصور وصلبان حولها[31].

وبعد أن اطمأن السلطان صلاح الدين إلى استقرار الأوضاع في بيت المقدس، قرر أن يتجه إلى صور لفتحها، فرحل عن القدس في يوم الجمعة 25 شعبان سنة 583هـ/ 30 أكتوبر 1187م، وتوجه إلى عكا حتى يكتمل وصول العساكر إليه، ثم نزل بعد ذلك على صور بعد خمسة عشر يوماً فوجدها مدينة حصينة وقد زاد الصليبيون من تحصينها بعد أن حفروا خندقاً حولها وشحنوه بالأسلحة والعدد والمقاتلة[32]. فضرب صلاح الدين حولها

(31) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 141 ـ 142، الفتح البنداري: المصدر السابق، ص 315، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 113 ـ 114، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 229، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 348، انظر أيضاً:
Geoffry de Vinsauf: Op. Cit., p. 80.

(32) يعقب ابن الأثير على احتشاد الصليبيين بصور بقوله: «ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك. كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم، فحفظوا المدينة، وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم، ووعدوهم بالنصرة، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجأون إليها، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها». ويضيف أيضاً معقباً: «وسنذكر إن شاء الله ما صار إليه الأمر بعد ذلك، ليعلم =

حصاراً برياً واستدعى الأسطول المصري الموجود بعكا، لإحكام الحصار عليها بحراً، ولكن الصليبيون استطاعوا الأنقضاض على مراكب الأسطول المصري وتفرقته، ولما طال الحصار على صور، وأصاب الضجر والملل الكثيرين من أمراء المسلمين لما رأوه من تعثر فتحها فأشاروا على صلاح الدين بالرحيل حتى لا تفني الرجال وتقل الأموال خاصة بعد أن اشتد برد الشتاء عليهم[33].

= أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم، وإن ساعدته الأقدار، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً مضيعاً للحزم وأعذر له عند الناس». انظر ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 160 ـ 161. ومن الجدير بالذكر أن سبط ابن الجوزي أيضاً انتقد على صلاح الدين تركه الصليبيين يرحلون من المدن التي فتحها نظير افتداء أنفسهم بالمال، فتجمعوا في صور بأعداد كبيرة وكان ذلك مضرة للمسلمين، وفي ذلك يقول: «ولقد صنع غير الحزم بتسيير الفرنج إلى صور، ولم ينظر في عواقب الأمور، فإن اجتماعهم بصور كان سبباً لأخذهم البلاد وقتلهم بعكا من قتلوا من الأعيان وأجناد الإسلام. وقد كان الواجب عرضهم على الإسلام، فإن أبوا فالسيف وهو أصدق أنباء من الكتب». انظر: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 254 ـ 255، انظر كذلك: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 20. ويذكر المؤرخ الإنجليزي ستيفنسن أنه سمح لأعداد كبيرة من اللاتين بالخروج من بيت المقدس دون دفع أي شيء ونزحوا إلى المدن المسيحية، وأحسنت معاملة النساء والأطفال بعطف فاق ما يعاملهم به إخوانهم المسيحيين، وذلك بفضل ما أظهره صلاح الدين من شهامة ورحابة صدر وسماحة تفكير فاقت ممارسات الأمراء في عصره بل وتجاوزت المثاليات. راجع:

Stevenson: Op. Cit., pp. 253-254.

ولكن يرى الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه «تاريخ مصر الإسلامية: ص 77 ـ 78 أن السبب في ذلك يرجع إلى أن صلاح الدين أراد أن يحقن دماء المسلمين إذا ما خاضوا معارك ضد الصليبيين عندما يحاصروا مدنهم وحصونهم الداخلية. وفي الوقت نفسه يحتفظ بأكبر عدد ممكن من جنوده ليكونوا قوة مساندة له في تطهير الأراضي المقدسة كلها من أيدي الصليبيين. وبجانب ذلك كان صلاح الدين يرى أنه بعد أن يستولي على هذه المدن الداخلية بالطرق السلمية تدور الدائرة بعد ذلك على مدينة صور فالاستيلاء على المدن الساحلية يكون من الناحية الاستراتيجية الحربية أكثر سهولة من المدن الداخلية. وفضلاً عن كل ذلك فإن تجميع الصليبيين كلهم في مدينة واحدة يسهل على المسلمين أن يقضوا عليهم دفعة واحدة.

(33) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 168 ـ 171، الفتح البنداري: المصدر السابق، =

وعندئذ أخذ صلاح الدين يستشير رأي الفقهاء والعلماء الموجودين حوله والذين يعتز برأيهم وخبرتهم في المعارك، وفي مقدمتهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري. فرأوا ضرورة المصابرة والاجتهاد والثبات إلى الفتح، لئلا يضيع ما تقدم من الأعمال وإنفاق الأموال[34] ولهذا طلب السلطان من هؤلاء الأمراء أن يصبروا قليلاً، ولا يتعجلوا الأمور حتى ينجزوا مهمتهم بنجاح ووافقوه دون أن يخلصوا النية له، ولم يصدقوا القتال، ولذلك اضطر السلطان للرحيل عن صور وتوجه إلى عكا تاركاً أمر حصار هذه المدينة لوقت لاحق[35].

ولعله من الأدوار الأخرى الهامة التي قام بها الفقهاء والعلماء أثناء استرداد صلاح الدين للثغور الساحلية من الصليبيين ما قام به منصور بن ثبيل قاضي جبلة[36] ذو الشخصية القوية والكلمة المطاعة عند أتباعه مما كان له أكبر الأثر في استمالة بوهيمند صاحب أنطاكية إليه لينتفع به[37] فقد قام هذا

= ص 317 ـ 321، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 256، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 119 ـ 120، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 242 ـ 245، انظر أيضاً:

Geoffry de Vinsauf: Op. Cit., p. 80.

(34) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 172 ـ 173، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 160 ـ 161، الفتح البنداري المصدر السابق، ص 321 ـ 323، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 119 ـ 120.

(35) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 174 ـ 176، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 161، الفتح البنداري: المصدر السابق، ص 322، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 120، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 246. انظر أيضاً:
Geoffry de Vinsauf: Op. Cit., pp. 80-81.

(36) جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 105.

(37) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 167، ابن شداد: المصدر السابق، ص 72، وبالنسبة لسيرة قاضي جبلة فلم نعثر له على ترجمة في كتب التراجم. وقد اكتفى معظم المؤرخين المعاصرين بذكره تحت اسم قاضي جبلة دون توضيح لاسمه عدا ابن الأثير. انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 161، حاشية 2.

القاضي بدافع الغيرة على دينه بالتوجه إلى السلطان صلاح الدين أثناء فتحه بعض الحصون على الساحل، وأشار عليه بالسير إلى جبلة لفتحها قبل غيرها، لينقذ المسلمين المقيمين بها من طغيان الصليبيين عليهم، وأوعز إليه سهولة فتحها في وقت قصير، وقال له: «وهذه جبلة وما وراءها من المعاقل، قنيصة للحابل، وفرصة للمتناول، ولهنة للآكل، ونغية للناهل وأمنية للعاقل، فما دونها مانع، ولا عنها مدافع، وهي على غرتها وغرورها وغفلتها وفتورها، لم يفترع عذرة أمنها ذعر، ولم يفثأ سورة نفعها ضر، ولم يقرع باب يسرها عسر، فإن سلكنا سبيلها، ملكنا سلسبيلها. وإن جزنا راحتها. وإن استقدنا ملكها قيادها، وإن اعتدنا حواءها حوينا عتادها. وإن افتتحنا بها فتحناها. والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقائهم منكم بالنعيم»[38].

وقد اقتنع السلطان صلاح الدين بصدق نصيحته وقرر التوجه إليها معه. فلما وصلها في يوم الجمعة 18 جمادى الأولى سنة 584هـ/ 15 يوليو 1188م[39]، خرج إليه مسلمو البلد فرحين مهللين، ورفعوا على سور جبلة الرايات الناصرية المنصورة، والحماس الديني يملأ قلوبهم بفضل ما بثه قاضيها في نفوسهم من آمال كبيرة بأن خلاصهم سيكون على صلاح الدين.

ولما فوجيء الصليبيون بجيوش صلاح الدين أخذوا يلوذون بالفرار أمامها وتحصنوا بقلعتها الحصينة، وعندئذ استخدم قاضي جبلة خطة محكمة لتحطيم معنوياتهم ومقاومتهم وليجبرهم على الاستسلام، فأخذ يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردوا من أنطاكية رهائن جبلة من المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدمين، حتى

(38) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 227 ـ 228، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 167.

(39) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 223، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 168، ابن شداد: المصدر السابق، ص 72.

أعاد صاحب أنطاكية الرهائن التي عنده، ففك بها رهائنه[40]. وهكذا تسلم السلطان جبلة وتولى قاضيها أمر الصليبيين بها، فقام باستخراج الأموال والذخائر التي كانت لهم، وصادرها لخدمة المسلمين، وجردهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوة[41].

وإزاء هذا الموقف العظيم الذي قام به قاضي جبلة، قام صلاح الدين بتبجيله وتشريفه وحبس عليه ملكاً نفيساً، ووقفه، وصرفه في أملاك آبائه، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه[42].

يتضح مما سبق أن السلطان صلاح الدين كان يعتمد كثيراً على مشورة أصحابه من فقهاء وعلماء دولته، وتأييدهم له في تحديد مسار جيوشه لاستكمال فتوحات الساحل الشامي، كما كان يعتمد أيضاً على تأثيرهم القوي في سكان البلدان الإسلامية وإقناعهم بمساعدته في الوقوف في وجه الصليبيين الموجودين في مدنهم ليضعفوا من قوتهم في الداخل فلا يستطيعون صد هجمات صلاح الدين. وتأكيداً لهذه الزيارة التي قام بها عام 584هـ/ 1188م، وصحبه القاضي الفاضل ليستنير برأيه فيما هو مقدم عليه في هذا الشأن[43] ومما لا شك فيه أن اهتمام صلاح الدين بأخذ رأي القاضي

(40) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 233 ـ 234، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 168، ابن شداد: المصدر السابق، ص 72 ـ 73، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 127.

(41) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 127.

(42) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 234، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 127.

(43) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 125، ويذكر العماد الأصفهاني في هذا الصدد: «فأراد السلطان أن يقدم بلقائه الاجتماع، وبرأيه الانتفاع، ويستنير بنوره، ويستشيره في أموره، ويفاوضه في تفويضاته، ويقلده في تقليداته، ويتبرك بميامنه، ويتيمن ببركاته، فإنه طالما اجتلى سنى السعادة من مطالعه، واجتنبى جنى الإرادة من صنائعه، وافتتح الأقاليم بمفاتيح أقلامه، وأحكم المملكة بثبوت أحكامه، ووافاه بإمداد السؤدد الوافي سواد مداده، وجاء بالوجاهة في دينه ودنياه لإسعافه وإسعاده». انظر: العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 217.

الفاضل، إنما يدل على الثقة الكاملة التي كان يتمتع بها هذا الفقيه عند صلاح الدين، لما لمسه منه ومن آرائه الصائبة من نجاح كثير من خططه ومشروعاته. وقد عثرنا على نظم للقاضي ابن الذروي[44] المصري، يصف فيه آراء القاضي الفاضل وموضحاً تأثير آرائه تلك في الانتصارات التي أحرزها المسلمون على الأعداء.

لرأيك هذا النصر للدين ينتمي ... فلا ينتحله كل عضب ولهذم
وإن كان فيه للأسنة والظبى ... مساعدة فالفضل للمتقدم
تشير على الإسلام منك فراسة ... لها حزم طب واحتراز منجم
وتحميه ألفاظ لديك كأنها ... قواطع بتر أو نوافذ أسهم
ألا حبذا فتح نشرت لواءه ... وقلت لخيل الله يا خيل أقدمي
وقمت وقد نام الأنام مناجياً ... بمولاي نج المسلمين وسلم[45]

(44) هو القاضي الوجيه رضي الدين أبو الحسن علي بن أبي الحسن يحيى بن الحسن بن أحمد المعروف بابن الذروي، وهو الأديب الشاعر. والذروي: بفتح الذال المعجمة والراء بعدها واو، نسبة إلى ذروة وهي قرية بصعيد مصر. انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 145 ـ 146، ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 2، ص 188. وجدير بالذكر أن كل من ابن خلكان وابن شاكر لم يذكر ترجمة له، وإنما أورد الاسم كاملاً، فضلا عن مجموعة من أشعاره.

(45) ابن خلكان: المصدر السابق، ج 4، ص 145 ـ 146، ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 2، ص 188.

يخاطب الشاعر ممدوحه القاضي الفاضل مادحاً إياه ناسباً هذا النصر للدين لرأيه السديد الحصيف ـ بعد الله ـ فلا يمكن أن ينتحل أحد أو ينسب هذا النصر لغير رأيك، وإن كان للسنان وأسنة الرماح فضل في النصر إلا أن الفضل لرأيك هو المقدم السابق لكل نصر وقوة، فمشورتك فراسة طبيب حازم يشخص موضع الألم ويعالجه، كما كانت لألفاظك الحماسية وخطبك القوية الأثر القوي في نفوس الجند فهي كقواطع بتر وأسهم نافذة في ظهر العدو، فما أعظم هذا النصر الذي نشرت لواءه وكنت فيه مقدماً على الموت حاثاً خيلك على الإقدام كما أنك بقيامك الليل مناجياً =

ومن العلماء المجاهدين الذين برزوا أيضاً في دولة الناصر صلاح الدين الأيوبي وكان لهم مكانة عظيمة عنده، هو القاضي ابن شداد[46]، الذي دخل دمشق عام 584هـ/ 1188م أثناء حصار صلاح الدين لقلعة كوكب[47]، فلما سمع السلطان بوصوله استدعاه إليه وتلقاه بفرح وأكرمه وطلب منه البقاء معه، وجمع له القاضي ابن شداد كتاباً يشتمل على ما أعده الله سبحانه وتعالى للمجاهدين[48]، ثم قدمه إليه تحت اسم «فضائل الجهاد»، فأعجب به صلاح الدين كثيراً وألحقه بخدمته في مستهل جمادى الأولى عام 584هـ/ 1188م، وولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف[49]. وكان ملازماً

= رب الخلائق أجمعين أن ينصر المسلمين ويسلم ديارهم وأموالهم وأولادهم، فبهذا كله كان الله نصيرك وكان النصر حليفك.

(46) هو أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي، قاضي حلب، المعروف بابن شداد الملقب بهاء الدين، الفقيه الشافعي، توفي أبوه وهو صغير السن، فنشأ عند أخواله بني شداد، فنسب إليهم وكان شداد جده لأمه. ولد بالموصل سنة 539هـ/ 1144م، واتقن القراءات على يد الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون الأزدي القرطبي. درس بالمدرسة النظامية ببغداد، ومن كتبه كتاب في الأقضية سماه «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» وكتاب «دلائل الأحكام» وكتاب «الموجز الباهر» في الفقه، وكتاب «سيرة السلطان صلاح الدين المسمى النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية». توفى ابن شاد بحلب سنة 632هـ/ 1234م، لمزيد من التفصيلات عنه انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 7، ص 84 ـ 100، السبكي: المصدر السابق، ج 8، ص 360 ـ 362، أبو شامة: الذيل، ص 163، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 292، العليمي: المصدر السابق، ج 2، ص 447 ـ 448، ابن العماد: المصدر السابق، ج 5، ص 158 ـ 159.

(47) كوكب: قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية، حصينة رصينة تشرف على الأردن. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 4، ص 494.

(48) ابن خلكان: المصدر السابق، ج 7، ص 88، ابن شداد: المصدر السابق، ص 17، السبكي: المصدر السابق، ج 8، 361.

(49) ابن شداد: المصدر السابق، ص 71، أبو شامة: الروضتين، ج 2، ص 124 ـ 125، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 7، ص 88، السبكي: المصدر السابق، ج 8، ص 361، ويذكر السبكي أنه «أول قاضٍ ولي القدس بعد فتوح صلاح الدين» العليمي: المصدر السابق، ج 2، ص 447 ـ 448.

لصلاح الدين في كل فتوحاته بصفته قاضياً للعسكر، ليشرف على الشؤون الدينية في الجيش، وكان معه كاتب يكتب لهم، وجماعة من العدول يختارهم من الجند للشهادة، وجرى العرف أن تكون خيمة قاضي العسكر عن يمين الأعلام السلطانية، وأن يكون له موضع يمشي فيه وهو سائر. وكانت هذه المهمة تتطلب منه أن يكون مستعداً للأحكام التي يكثر فصلها في العسكر، كالغنائم والشركة والقسمة والمبيعات، وأن يسرع في الفصل بين الخصوم لئلا يكون في ذلك تشاغل عن مواقع الحرب ومقدماته[50].

وكان القاضي ابن شداد ـ أثناء ملازمته لصلاح الدين في فتوحاته ـ يشترك مع الجند في أعمالهم كواحد منهم، ويتضح ذلك من حديثه عند فتح قلعة بفراس[51]. فيذكر أنه كان ضمن القوات الإسلامية المتجهة لحصارها ـ ورغم مناعتها وقربها من أمارة أنطاكية ـ مما يسهل وصول الإمدادات الصليبية إلى المحاصرين في القلعة ـ فقد أبلى المسلمون بلاءاً حسناً أسفر عنه استسلام الأهالي وسيطرة المسلمين عليها في الثاني من شعبان عام 584هـ/ 1188م[52].

ولم يقتصر دور القاضي ابن شداد على ذلك، بل كان شديد الصلة وقريباً من صلاح الدين في غزواته. فكان يجلس معه، ويسهر بجانبه يشد من أزره ويسانده ويشجعه ويروي له الأحاديث الشريفة التي تخفف عنه عناء الشدة في جهاده. فيقول بمناسبة حديثه عن فتح صفد سنة 584هـ/ 1188م «وقد كنت عنده في خيمته ليلة، وقد عين مواضع خمس مجانيق. فقال: ما ننام حتى تنصب الخمسة، وتسلم كل منجنيق إلى قوم، ورسله تتواتر إليهم

(50) نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص 44.

(51) بفراس: مدينة في لحف جبل اللكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 467.

(52) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 257 ـ 259، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 174، ابن شداد: المصدر السابق، ص 77، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 133.

يعرفونهم كيف يصنعون، حتى أظله الصبح، وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح وبشرته بمقتضاه، وهو قوله ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار، عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله**»[53]، ولم يزل القتال متواصلاً بالبون مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع شوال»[54].

وكان للفقيه بهاء الدين ابن شداد وغيره من صفوة العلماء والفقهاء المعاصرين له، دور كبير في المعارك الحربية التي دارت رحاها حول مدينة عكا عام 585هـ/ 1189م، عندما قرر الصليبيون الموجودون في صور فرض الحصار عليها بقيادة مليكهم جاي دي لوزجينان، وكان السلطان صلاح الدين آنذاك محاصراً لقلعة شقيف أرنون[55]، فدعا لعقد مجلساً للشورى لاتخاذ قراراً فيما يجب أن يفعلوه أزاء اقتراب هذا الخطر الصليبي، وكان هذا المجلس ينعقد كلما دعت الحاجة إليه، ويتكون من صلاح الدين رئيساً ومن

---

(53) هكذا ذكر ابن شداد الحديث أما نص الحديث الصحيح فهو (عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله) انظر: سنن الترمذي: الجامع الصحيح، 1962 القاهرة، باب ما جاء من فضل الحرس في سبيل الله، ج 4، ص 175. النووي: المصدر السابق، ص 466، محمد عزة دروزة: المرجع السابق، ص 33.

(54) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 268 ـ 269، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 176، ابن شداد: المصدر السابق، ص 78، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 135، انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 2، ص 758.

(55) هي قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 356، كان الصليبيون قد استولوا على هذه القلعة عام 534هـ/ 1139م وظلت خاضعة لهم حتى سقطت في أيدي المسلمين سنة 585هـ/ 1189م. وفي سنة 638هـ/ 1240م سلمها الصالح إسماعيل صاحب دمشق إلى الصليبيين، وظلت بأيديهم حتى استولى عليها الظاهر بيبرس نهائياً سنة 667هـ/ 1268م وموقعها في جنوب لبنان تقع فوق جرف جبلي مقابل نهر الليطاني ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ هذه القلعة انظر: رضا السيد حسن: الصليبيون وآثارهم في جبل عامل، بيروت 1987م، ص 117 ـ 129 مولر: المرجع السابق، ص 80. انظر كذلك:
Hayton: Laflor des Estoires de la terre d'Orient. Ed. R.H.C. -Doc. Arm., t. II, Paris, 1869, p. 174.

عضوية أخيه الملك العادل أبو بكر، وأولاده وأولاد أعمامه والرفاق القدامى، والأتباع الجدد، ووزيره القاضي الفاضل وسكرتيره الخاص العماد الأصفهاني[56]، وقاضي الجيش بهاء الدين بن شداد[57].

وقد أبدى صلاح الدين رأيه بضرورة الإسراع بمهاجمة الصليبيين قبل وصولهم إلى عكا، بينما رأى أعضاء المجلس أنه من الأفضل ترك الصليبيين حتى يصلوا إلى عكا، عندئذ يزحف الجيش الإسلامي عليهم فيحصرونهم

(56) هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين أبو الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود ابن هبة الله القرشي الأصفهاني. ولد بأصبهان سنة 519هـ ونشأ بها. ثم قدم بغداد في حداثته فأقام بها مدة وانتظم فيها في سلك المدرسة النظامية، وكان العماد فقيهاً شافعياً، تفقه على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد بن الوزان، ثم عاد إلى مسقط رأسه ـ أصبهان ـ فتفقه بها على محمد بن عبد اللطيف الخجندي، وأبو المعالي الوركاني. ثم رجع إلى بغداد واشتغل فيها بصناعة الكتابة فبرع فيها، واتصل في بغداد بالوزير ابن هبيرة، فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط. ثم انتقل إلى دمشق في سنة 562هـ، ونزل عند القاضي كمال الدين محمد بن الشهرزوري فأنزله بالمدرسة النورية الشافعية وهي المدرسة التي تولى بعد ذلك التدريس بها وعرفت به. وقد علت منزلته عند نور الدين محمود، فرتبه في ديوان الإنشاء سنة 563هـ وصار صاحب سر نور الدين. وبعد وفاة نور الدين محمود ترك دمشق ورحل إلى الموصل، فلما بلغه خروج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية لأخذ دمشق عاد إليها سنة 570هـ. ومدح صلاح الدين بقصائد كثيرة. ثم توسط له القاضي الفاضل عند صلاح الدين حتى نظمه في سلك جماعته واستكتبه، واعتمد عليه وقربه منه، فصار من جملة الصدور المعدودين والأماثل المشهورين، يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم. وصار هو صاحب السر المكتوم لصلاح الدين. ومن مؤلفاته: كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، وكتاب البرق الشامي، وكتاب الفتح القسي في الفتح القدسي وكتاب السيل على الذيل، وكتاب نصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الدولة السلجوقية. وله ديوان رسائل وديوان شعر. ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته حتى وفاة صلاح الدين، وبعدها لزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف حتى توفي بدمشق سنة 597هـ، انظر: ياقوت: معجم الأدباء ج 18، ص 11، أبو شامة: الذيل، ص 27، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 5، ص 147 ـ 153، ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 1، ص 33، السبكي: المصدر السابق، ج 4، ص 97، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 33 ـ 34، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 4، ص 332.

(57) نظير حسان سعداوي: المرجع السابق، ص 32.

بين حامية عكا القوية من داخل المدينة وبين الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين المرابط خارجها[58] فاضطر صلاح الدين إلى أن ينزل على رأي مجلسه. ويذكر العماد الأصفهاني في هذا الصدد «وتبين لنا بالعاقبة أن الرأي السلطاني كان أصوب، فإن نزالهم عند نزولهم صار أصعب»[59].

وقام الصليبيون عند وصولهم إلى عكا بمحاصرتها، فلحق بهم صلاح الدين بجيوشه، وقامت بين الطرفين معارك كثيرة اشترك فيها كثير من الفقهاء والعلماء، وكانت أشد هذه المعارك على عكا، مما جعل بعض المؤرخين يطلق عليها ـ المصاف الأعظم ـ أو الوقعة الكبرى[60]. وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري يتولى مقدمة القلب في جيش صلاح الدين[61]، كما كان القاضي بهاء الدين بن شداد والفقيه العماد الأصفهاني مشاركين أيضاً في هذه المعركة، وقاما بوصفها وصفاً دقيقاً كشاهدي عيان لها[62]. دون أن يوضحا دورهما في المعركة وكان النصر حليف المسلمين في نهاية هذه المعركة وتكبد الصليبيون خسائر فادحة في الأرواح قدرت بعشرة آلاف قتيل[63].

---

(58) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 297، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 184 ـ 185، أبو شامة: الروضتين، ج 2، ص 146، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 291، انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 53 ـ 54.

(59) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 298.

(60) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 308 ـ 317، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 186 ـ 187، ابن شداد: المصدر السابق، ص 92، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 144، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 294 ـ 305، انظر أيضاً: Geoffry de Vinsauf: Op. Cit., pp. 119-120.

(61) ابن شداد: المصدر السابق، ص 93، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 144، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 296.

(62) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 308 ـ 317، ابن شداد: المصدر السابق، ص 93 ـ 95، انظر أيضاً: Geoffry de Vinsauf: Op. Cit., pp. 207-208.

(63) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 311 ـ 314، شاهنشاه بن أيوب: المصدر السابق، ص 296، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 187، ابن شداد: المصدر السابق، ص 95 ـ 96، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 76 ـ 77، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 355.

وقد استشهد في هذه المعركة، الفقيه ظهير الدين الهكاري أخو الفقيه عيسى الهكاري، وكان والياً على بيت المقدس، وقد جمع بين الشجاعة والعلم والدين[64].

وعندما علم الفقيه عيسى الهكاري بنبأ استشهاده أنكر عزاء الناس له قائلاً: «هذا يوم الهناء، لا يوم العزاء»[65].

كما استشهد أيضاً في هذه المعركة الفقيه أبو علي بن رواحة[66] عند خيمة صلاح الدين مع جماعة، ويبدو أنه كان ممن يدافعون عن خيمة صلاح الدين حينما اندفع جماعة من الصليبيين إلى الخيمة يريدون الفتك بالسلطان[67].

وقد دعا السلطان صلاح الدين بعد انتهاء المعركة لعقد مجلس الشورى، حضره أرباب المشورة والأمراء، أمثال القاضي ابن شداد، والعماد الأصفهاني الكاتب، وذلك للبت في أمر عكا. وقام صلاح الدين بإلقاء خطبة عليهم، قال فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا، قد نزل في بلدنا، وقد وطىء

---

(64) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 187، ابن شداد: المصدر السابق، ص 95، ولم نعثر على ترجمة له في كتب التراجم التي بين أيدينا.

(65) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 309، ابن شداد: المصدر السابق، ص 95، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 145، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 299، الحنبلي: المصدر السابق، ص 161.

(66) هو الحسين بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن رواحة أبو علي الأنصاري الحموي، الأديب الفقيه الشاعر المجيد، ولد بحماه ونشأ بها، ورحل إلى دمشق فأقام بها مدة، واشتغل بالفقه، وسمع الحديث من الحافظ أبي القاسم بن عساكر ومن عمه وآخرين. ورحل إلى مصر فسمع بها وبالإسكندرية. ثم عاد إلى دمشق فشهد واقعة مرج عكا، فقتل شهيداً يوم الأربعاء من شعبان سنة 585هـ. انظر: العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 318، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 10، ص 46 ـ 56، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 187، ابن شداد: المصدر السابق، ص 94، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 300 ـ 302، ابن العديم: المصدر السابق، ج 3، ص 110 ـ 112، ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 1، ص 275 ـ 276.

(67) ابن شداد: المصدر السابق، ص 94.

أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقى في هذا الجمع اليسير، ولا بد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن يفتح البحر، جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم. فلينجزنا كل منكم ما عنده في ذلك»[68].

وبعد مشاورات ومناقشات كثيرة انقسم أعضاء المجلس إلى فريقين، فقد أيد الفريق الأول السلطان في استمرار القتال قبل أن يجمع العدو شمله ويسعفه البحر بالإمداد، بينما نادى المعارضون باتجاه العسكر إلى الخروبة[69] حتى يستجم قائلين: «وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوماً، وما طعمنا في هذه الليالي نوماً، ولا سمعنا لطارق طيف غمضاً... وقد كلت الضوامر، وفلت البواتر، وملت العساكر، وهذا الشتاء قد أقبل، والعدو قد استقتل... وهؤلاء لا يتمكن منهم إلا بالجمع الجم، والسيل لا يغلبه غير الخضم والصواب أن نصابرهم هذه الشتوة، ونستجد لنا ولخيلنا القوة. ونتأخر عن هذه المنزلة، لتحصيل هذه المصلحة المؤملة... والصواب الأخذ بالاحتياط وتقديم الكتب والرسل إلى الأطراف والأوساط. ومكاتبة دار الإسلام وإعلام الإمام ـ عليه أفضل السلام ـ بما دفع إليه الإسلام بالشام، فإن المسلمين لا شك ينجدون، ويقومون بالنصرة ولا يقعدون.. فحينئذ ينتهي أمد المصابرة، ونصمم على المكابرة مع المكاثرة. ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر، ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر، وننسفهم ولو أنهم جبال»[70].

---

(68) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 322، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 188، ابن شداد: المصدر السابق، ص 97 ـ 98، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 146، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 304.

(69) حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 362.

(70) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص322 ـ 323، ابن شداد: المصدر السابق، ص 98.

وتغلب رأي المعارضين، واضطر صلاح الدين أن ينزل عند رأيهم، وانتقل العسكر إلى الخروبة في رابع شهر رمضان 585هـ/ 1189م، وهناك أصيب الفقيه عيسى الهكاري بمرض أدى إلى وفاته وهو في ركاب صلاح الدين مستعداً كعادته لتلبية نداء الجهاد في سبيل الله[71]. وقد جاء رحيل السلطان وعساكره عن عكا فرصة كبيرة للصليبيين انتهزوها وأحكموا حصارهم حول عكا، وحصنوا أنفسهم، واتخذوا كل الاحتياطات اللازمة لحماية أنفسهم من صلاح الدين[72]. وقد نتج عن هذا ضياع عكا في النهاية بعد حصار دام عامين كاملين في سابع عشر جمادى الآخرة سنة 587هـ/ 12 يوليو 1191م[73].

وكان ضمن القضاة الذين شاركوا في القتال ضد الصليبيين المحاصرين لعكا في سنة 586هـ/ 1192م القاضي المرتضى بن قريش[74]، فكانت له

---

(71) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 355، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 190، شاهنشاه بن أيوب: المصدر السابق، ص 296 ـ 297، ابن شداد: المصدر السابق، ص 100، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 150، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 356، العليمي: المصدر السابق، ج 2، ص 486 ـ 487.

(72) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 325 ـ 326، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 188 ـ 189، شاهنشاه بن أيوب: المصدر السابق، ص 297، ابن شداد: المصدر السابق، ص 98 ـ 101، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 146 ـ 147، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 303 ـ 305، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 65.

(73) لمزيد من التفصيلات عن سقوط عكا في أيدي الصليبيين راجع:
العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 513 ـ 514، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 205 ـ 207، شاهنشاه بن أيوب: المصدر السابق، ص 299، ابن شداد: المصدر السابق، ص 160 ـ 162، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 186 ـ 188، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 355 ـ 361، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 155، انظر أيضاً:
Geoffry de Vinsauf: Op. Cit., pp. 274-276.

(74) هو القاضي المرتضى صفي الدين أبو المجد عبد الرحمن بن علي بن عبد العزيز بن علي بن قريش المخزومي ولد سنة 524هـ وسمع عن السلفي، ودفن بالقدس، وكان أحد كتاب الإنشاء في عصر صلاح الدين. انظر: العماد الأصفهاني: المصدر السابق، 464 ـ 465، =

مواقف عديدة في مشاركة المسلمين محاولاتهم فك الحصار الذي ضربه الصليبيون على عكا، ولكنه استشهد في يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة 586هـ/ 1190م.

وجدير بالذكر أن دور الفقهاء والعلماء أثناء حصار الصليبيين لعكا في الحملة الصليبية الثالثة لم يقتصر على حمل السلاح ومقاتلة الصليبيين لدفعهم عن عكا، وإنما كانوا يطوفون داخل المعسكر الإسلامي بين الجند يبثون الشجاعة في نفوسهم، فالقراء يقرأون القرآن ويحذرون الجند من الفرار، ويذكرونهم بما أعده الله تعالى للشهداء في الجنة من جزاء عظيم، ويستشهدون في ذلك بآيات الله الكريمة وبالأحاديث النبوية الشريفة، ليرفعوا من روحهم المعنوية ويزيدون من تصميمهم ومصابرتهم في الجهاد، وذلك شأن كل المعارك والفتوح التي كان صلاح الدين يخوضها. وكان للقاضي بهاء الدين ابن شداد دور عظيم في هذا الشأن. فعندما بلغت صلاح الدين الأخبار بخروج الامبراطور الألماني فردريك بربروسا بجيوشه إلى بلاد الشرق لنجدة الصليبيين بالشام، اشتد ذلك عليه ورأى حث الناس للجهاد وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة[75]. فعهد إلى القاضي بهاء الدين بن شداد بالمسير إلى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية الأخرى لتوضيح موقف المسلمين للخليفة العباسي الإمام الناصر أبو العباس أحمد، وإلى كافة الأمراء الحكام حتى يقوم الخليفة بدوره في حث وتحريض المسلمين في مختلف الأقطار والبلاد للنفير للجهاد ومساعدة المسلمين بالشام. ويقول ابن شداد: «فاستدعاني لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب اربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم

= أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 182، المقريزي: الخطط، ج 2، ص 86، ولم نعثر على ترجمة وافية له في كتب التراجم.

(75) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 330 ـ 332، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 193 ـ 195، ابن شداد: المصدر السابق، ص 98، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 150 ـ 151.

وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد لأعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة. وكان مسيري في ذلك المعنى في الحادي عشر من رمضان، ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم، فأجابوا بنفوسهم...، بكل جميل، وعدت إلى خدمته رحمه الله. وكان وصولي يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين، وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته باجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير، فسر بذلك، وفرح فرحاً شديداً[76].

ولعلنا نستنتج مما ذكره ابن شداد أهمية وخطورة المهمة التي كلف بها إلى بغداد، خاصة في تلك الظروف العصيبة والصليبيون يهددون عكا تهديداً شديداً، وتكاد أن تقع في أيديهم، لذلك عرض صلاح الدين على الخليفة الحضور بشخصه لتحميس المسلمين، على أن يتنازل له عن جميع بلاده[77].

ولكن الخليفة لم يكن متحمساً للانتقال من قصوره ليعيش في ميدان القتال. فلم يرد على دعوة صلاح الدين، واكتفى بأن ارسل إليه عدة أحمال من النفط، وتوقيع بمال له عند بعض التجار، مما جعل صلاح الدين يستاء من تصرفه[78].

وكذلك كان للقاضي الفاضل دور بالغ الأهمية أثناء حصار الصليبيين لعكا وكان متواجداً بمصر آنذاك يدبر شؤونها نيابة عن صلاح الدين، وكان من خلال موقعه هذا يرتب للسلطان آموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل الميرة إلى عكا. والسلطان يكاتبه في

(76) ابن شداد: المصدر السابق، ص 98 ـ 99.

(77) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 334.

(78) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 365 ـ 366، ابن شداد: المصدر السابق، ص 102، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 152، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 357.

مهماته. وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيراً وناصحاً ومسلياً وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصياً[79]. وكانت مكاتباته تتواصل إلى صلاح الدين أثناء حصار الفرنج لعكا بصفة مستمرة، مليئة بالعبارات الصادقة بكل مشاعر الحب والإخلاص للتخفيف عنه من صعوبة هذا الحصار ومشاركته أحزانه وآماله فكان يشجعه فيها ويحثه على الصبر ويقوي من عزيمته لمواصلة الجهاد وعدم اليأس، وعدم القنوط من رحمة الله وكرمه، ويدعوه للتمسك بالأمل في نصر الله. فجاء في إحدى هذه الرسائل: «ولا يكره المولى أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدو فثوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها، والعاقبة للتقوى، ولينصرن الله من ينصره، والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده وبخاصته وبعامة جنده»[80]. وكان من ضمن الرسائل الأخرى التي كان يرسلها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين تلك التي أوضح فيها اعتذاره عن تأخر وصول الأسطول المصري إلى الشام بالإمدادات التي طلبها صلاح الدين من مصر، موضحاً أن ذلك مرجعه اشتداد الرياح المعاكسة وليس تقصيراً منه[81]. ومما لا شك فيه أن هذه الرسالة تعتبر تأكيداً للدور الذي كان يقوم به في مصر هذا القاضي الأجل وغيره من الفقهاء والعلماء لمساعدة صلاح الدين وتأمين مستلزمات وتموين الجند المحارب معه بعكا.

وجدير بالذكر أن القاضي الفاضل كان يحاول بكل الطرق والوسائل الممكنة أن يساعد صلاح الدين والمسلمين أثناء هذا الحصار. فأرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد كتاباً يستحثه فيه بأقوى العبارات وأوقعها على النفس والقلب، مهيباً به أن يقف بجانب صلاح الدين والمسلمين في هذا الموقف الصعب، نصرة لدين الله ولرسوله ﷺ وإعلاء لشأن المسلمين. ولعل أقوى

(79) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 165، ابن كثير: المصدر السابق، ج 12، ص 361.

(80) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 166.

(81) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 417 ـ 419.

العبارات التي أوردها في هذا الكتاب قوله مناشداً الخليفة «فيا عصبة محمد عليه السلام، أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعة، ووفه الحق فينا، فأنا والمسلمون عندك ودائعه، وما مثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعتبات ضارعاً وقبل ترابها خاشعاً وناجاها بالقول صادعاً، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن عدو الإسلام أن يقول قولاً آخر لسافر، ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال ما يبكي العيون وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب»[82].

وعلى ذلك تجاوز القاضي الفاضل بالسلطان صلاح الدين، تلك المحنة القاسية، التي مرت به في عكا، وكان وحده بمثابة جيشاً ثانياً يحارب جنباً إلى جنب مع صلاح الدين. وبعد سقوط عكا في أيدي الصليبيين سنة 587هـ/ 1191م تزايدت أطماعهم في استرداد باقي المدن الشامية من المسلمين، استمر الفقهاء والعلماء مع صلاح الدين مؤيدين له ومشجعين جموع المسلمين يحثونهم على التماسك وعدم اليأس بعد سقوط عكا[83].

وعندما علم صلاح الدين أن الصليبيين في طريقهم إلى عسقلان، خشى أن يستولوا عليها ويقطعوا طريق الاتصال بينه وبين مصر المصدر الرئيسي لقوته الضاربة. ولهذا عقد مجلساً للشورى للنظر في التصدي لهذا الأمر، فأجمع الحاضرون على ضرورة تدمير أسوار مدينة عسقلان حتى لا يستفيد الصليبيون منها ويتخذونها قاعدة لهم في الاستيلاء على القدس الشريف[84]، ورغم اعتراض صلاح الدين على هذا القرار اعتراضاً شديداً إلا

(82) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 157.

(83) ابن شداد: المصدر السابق، ص 162، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 360.

(84) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 550 ـ 551، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 208 ـ 209، ابن شداد: المصدر السابق، ص 178 ـ 179، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 67 ـ 68.

أنه اضطر للرضوخ لرأي الجماعة، عله يكون في صالح المسلمين. ولكنه كان في قرارة نفسه حزيناً ومتألماً لتخريب عسقلان، فأسر بمكنون نفسه لصديقه ومؤنسه القاضي ابن شداد قائلاً له: «والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً واحداً. ولكن إذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان»[85].

وأخذوا يلحون لطلب الصلح والهدنة مع صلاح الدين، حتى تم ذلك في شعبان سنة 588هـ/ سبتمبر 1192م، لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر[86]. ثم توجه صلاح الدين بعد ذلك إلى دمشق وتوفى بها يوم الأربعاء 27 صفر سنة 589هـ/ 4 مارس 1193م[87].

وبعد وفاة صلاح الدين تولى أبناؤه حكم دولته في مصر والشام. حسبما قسمها بينهم في حياته. فكان للملك الأفضل نور الدين علي - ولده الأكبر - السلطنة من بعده، على أن تكون له السلطة العليا في أنحاء الدولة الأيوبية، فضلاً عن دمشق والساحل وبيت المقدس. أما الملك العزيز عثمان فقد أخذ مصر واستقر ملكه بها. أما ابنه الظاهر غازي فقد كان في حلب، فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها. في حين أخذ أخوه الملك العادل، الكرك والأردن والجزيرة وديار بكر. أما بقية أبناء صلاح الدين وأخوته فكانت لهم مناطق ثانوية صغيرة في أملاك الدولة الأيوبية[88].

وقد استمر الفقهاء والعلماء في دورهم القيادي البارز في الدولة الأيوبية

---

(85) ابن شداد: المصدر السابق، ص 179، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 192، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، ص 369.

(86) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 603 - 609.
Chronique anglaise depuis l'annee 1066-, Op. Cit., p. 563.

(87) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص 627 - 628.

(88) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، 629 - 636، شاهنشاه بن أيوب: المصدر السابق، ص 310 - 311، ابن العديم: المصدر السابق، ج 3، ص 124، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 87.

بعد وفاة صلاح الدين، ولم ينقطعوا عن العطاء، وواصلوا مسيرتهم لمساندة أبناء صلاح الدين وتأييدهم ونصحهم لتخطي العقبات التي تعترض طريقهم، حفاظاً على وحدة الدولة الأيوبية وسلامتها لتقف شامخة أمام التحدي الصليبي بعد فقد عاهلها وقائدها صلاح الدين. فقد ظل القاضي ابن شداد بدمشق مع الملك الأفضل يشاوره في جليل الأمور ودقيقها[89]، ويعتمد عليه اعتماداً كبيراً. ولكنه تنازل عنه إلى أخيه الملك الظاهر غازي الذي أخذ يرجوه أن يتحفه بالقاضي ابن شداد ليكون عنده بحلب ويتيمن برأيه ويستفيد من خبرته، ولما وصل ابن شداد إلى حلب استقبله الملك الظاهر أحسن استقبال، وفوض إليه قضاء بلاده، وصار أقرب الناس إليه منزلة. وأعظمهم مكانة عنده، وأصبح له الإقطاع الجليل، والحرمة التي لم يصل إليها أحد من المعممين[90].

وكان ابن شداد طوال إقامته بحلب يعتني بترتيب أمورها وتنظيمها، وجمع بها الفقهاء، واهتم ببناء المدارس الكثيرة بها، حتى أصبحت حلب مقصد الفقهاء والعلماء من البلاد[91].

وكان القاضي الفاضل آنذاك مقيماً بدمشق عند الملك الأفضل، وقد رأى في تصرفاته ما استنكره، مثل وضعه لكل ثقته في وزيره الجديد القاضي ضياء الدين بن الأثير[92]، الذي حسن للملك الأفضل أبعاد أمراء أبيه وأكابر

---

(89) ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص3، ص 8.

(90) ابن واصل: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(91) ابن خلكان: المصدر السابق، ج 7، ص 88 ـ 90، ابن العديم: المصدر السابق، ج 3، ص 132، الحنبلي: المصدر السابق، ص 252.

(92) هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب ضياء الدين، وهو أخو المؤرخ ابن الأثير، ومولده بجزيرة ابن عمر سنة 558هـ، انتقل مع والده إلى الموصل سنة 579هـ، واشتغل بها وحصل العلوم، وحفظ كتاب الله الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية، وطرفاً صالحاً من النحو واللغة وعلم البيان، وقد التحق بخدمة صلاح الدين عن طريق القاضي الفاضل سنة 587هـ، ثم طلبه الملك =

أصحابه[93] ولكن الملك الأفضل لم يستجب لنصح القاضي الفاضل، وعندئذ عزم القاضي الفاضل على ترك دمشق والتوجه إلى الديار المصرية، فاستأذنه وتوجه إلى الملك العزيز عثمان بمصر الذي أحسن استقباله وجعله عنده في محل والده، احتراماً وتعظيماً له، لما يعرفه من مكانته، وصار الملك العزيز لا يصدر أمراً إلا عن رأيه ومشورته[94]، وعلى عكس ما كان الملك الأفضل يفعل من استبعاد أمراء والده وأصحابه، قام الملك العزيز بتقريبهم إليه وأحسن إليهم، فعظم بذلك شأنه، وأجمعوا كلمتهم على نصرته وتقرير قواعد ملكه[95]. بل شجعوه على أخيه الأفضل الذي وقف عاجزاً أمام تسلم الفرنج لثغر جبيل من بعض مستحفظيه[96].

وكان للقاضي الفاضل دور كبير في فض منازعات البيت الأيوبي في كثير من الأحيان، فكان يخشى عليهم من أطماع الأعداء فيهم، ويصف لنا ابن واصل حالة القاضي الفاضل قائلاً: «وكان القاضي الفاضل قد تنزه عن ملابستهم ومخالطتهم، واعتزل بنفسه عنهم لما رأى من اختلال أحوالهم وفساد أمورهم، وأحوجه الملك العزيز أن يلبي دعوة عمه الملك العادل ويخرج إليه ليفرج هذه الغمة»[97].

= الأفضل من والده، فخيره صلاح الدين بين الإقامة في خدمته أو الانتقال إلى ولده، فاختار ولده الأفضل. فاستوزره الأفضل وحسنت حاله عنده. توفي ببغداد سنة 637هـ. ومن أشهر مؤلفاته «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر». انظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج 5، ص 389 ـ 396، أبو شامة: الذيل، ص 169.

(93) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 228، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 10 ـ 11.

(94) ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 12.

(95) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 228 ـ 229، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 12 ـ 14.

(96) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 228، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 26، انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 195 وص 170.

(97) للوقوف على تفصيلات صراع البيت الأيوبي راجع: ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 53، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 240 ـ 241.

ومما يؤكد استياء القاضي الفاضل وتألمه من هذه الأوضاع وتلك المنازعات التي انجرف فيها أبناء البيت الأيوبي، ذلك الكتاب الفاضلي الذي ذكره أبو شامة، والذي جاء فيه:

«أما هذا البيت، فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذ غرب نجم فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدأ تخريق في ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على قدر طريقه، وقد قدر طروقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه»[98].

وقد استطاع القاضي الفاضل بماله من مكانة وهيبة وخبرة وحكمة أن يوفق بين الأخوين ـ الملك العزيز عثمان والملك الأفضل ـ وتقرر الصلح بينهما على يديه، على أن يقيم العادل بمصر عند العزيز ليقرر قواعد ملكه، وأن يرجع الأفضل إلى دمشق، وتعاهد الجميع على ذلك[99].

وفي الوقت نفسه كان للقاضي بهاء الدين بن شداد دور كبير في تهدئة الأمور وفض كثير من المنازعات بين العزيز عثمان صاحب مصر والملك العادل من جانب، والملك الأفضل من جانب آخر[100].

يتضح مما تقدم أن الفقهاء والعلماء كانوا أكثر من أهتم بتصفية الخلافات والمنازعات بين أبناء صلاح الدين، وأخلصوا النية في ذلك حتى تستتب أمور الدولة ويعم السلام بين أبناء البيت الأيوبي ليتفرغوا لقضية الجهاد ويكملوا ما بدأه والدهم الناصر صلاح الدين. خاصة وأن هؤلاء الفقهاء والعلماء كانوا يدركون بثاقب بصرهم وبسريرتهم النافذة أن العدو الصليبي يراقب بكل دقة وبكل شغف ما يجري على الساحة الإسلامية من

(98) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 231 ـ 232.

(99) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 240 ـ 241، ابن العديم: المصدر السابق، ج 3، ص 134 ـ 135، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 230، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 53.

(100) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 230، ابن العديم: المصدر السابق، ج 3، ص 135، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 70.

منازعات وخلافات بعد وفاة صلاح الدين، ويترقب اللحظة المناسبة كي ينقض ليسترد البلاد وينتقم من المسلمين.

وإذا كان الفقهاء والعلماء قد انشغلوا قليلاً في حل مشاكل الصراعات القائمة بين حكام أبناء البيت الأيوبي، فلم يمنعهم ذلك من مواصلة مهمتهم الرئيسية في الحث على الجهاد والمشاركة الفعلية في صد العدوان الصليبي على البلاد الإسلامية ويتضح ذلك عندما أعاد الصليبيون سيطرتهم على بيروت للمرة الثانية عام 593هـ/ 1197م، مما ترتب عليه إغارات شديدة ضدهم من قبل المسلمين بقيادة العادل سيف الدين انتقاماً مما فعلوه في بيروت. فنجد القاضي الفاضل يبادر بإرسال رسالة من مصر إلى الملك العادل في دمشق يحثه فيها على مواصلة القتال ضد الصليبيين، ويشكره في نفس الوقت على جهوده في محاربتهم في البلاد الساحلية. فقال: «وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعة، وللإسلام اليوم قدم، إن زلت زل، وهمة إن ملت فإن النصر منه مل، وتلك القدم القدم العادلية، وتلك الهمة الهمة المسابقة السيفية، فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد، ودمثوا ذلك المهاد، وأسهروا في الله فليست بليلة رقاد. ولا ينظر في حديث زيد ولا عمرو، ولا أن فلاناً نفع ولا ضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا أن فيهم من مر، انظروا إلى أنكم الإسلام كله قد برز إلى الشرك كله، وإنكم ظل الله فإن صححتم تلك النسبة فإن الله لا ناسخ لظله، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تهونوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعة وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجار وتربح»[101].

(101) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 245 ـ 246، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 232 ـ 233، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 71 ـ 74، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 93 ـ 94، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 169.

ثم عاد القاضي الفاضل وأرسل رسالة أخرى إلى الملك العادل يحثه فيها على عدم الملل من المرابطة أمام العدو، ويهون عليه مشقة الحرب ضد الصليبيين، وما ينفقه من تكاليف على هذه الحرب مبشراً إياه بأن الله سوف يجزي خيراً المحسنين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله. فقال له: «فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها، وتجشم الكلف وحملها، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد وهو وجه الله، صرف إليه الله الوجوه كلها»[102]. فكان لهذه الكلمات الحماسية الصادرة من القاضي الفاضل أثر كبير في مواصلة الملك العادل غاراته على الصليبيين حتى الحق بهم الجهد وطلبوا الصلح، فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات اعتباراً من شعبان 594هـ/ يوليو 1198م[103]. وكانت هذه الهدنة بمثابة فسحة من الوقت أتاحت الفرصة للملك العادل في توحيد الدولة الأيوبية تحت قيادته بمساعدة فقهاء وعلماء المسلمين[104]. ولعل ذلك يتضح عندما توفى الملك العزيز عثمان ـ صاحب مصر ـ في محرم سنة 595هـ/ نوفمبر 1198م. وكان قد عهد من بعده إلى ولده الأكبر ناصر الدين محمد ـ وكان طفلاً في العاشرة من عمره ـ وكان لا بد من وجود وصي من البيت الأيوبي إلى جانبه يربيه ويدبر أمر الدولة ويرعى شؤونها، فاختلفت آراء الأمراء فيمن يتولى هذا الأمر، فلجأ إلى أخذ رأي القاضي الفاضل، فرد عليهم بحكمة بليغة قائلاً: «إني لا أشير عليكم بعزل أحد ولا ولاية أحد، لأن ذلك مما لا يوافق بعضكم فاستجاب

---

(102) أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 233، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 16.

(103) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 247، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 233، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 78، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 94، انظر أيضاً: Eracles: Op. Cit., p. 228.

(104) للوقوف على تفصيلات هذه الوحدة راجع:
ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 255، ابن العديم: المصدر السابق، ج 3، ص 142، أبو شامة: المصدر السابق، ج 2، ص 234، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 82 ـ 83، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 95، راجع أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 180.

عدواته، ولكن اجتمعوا بعضكم ببعض وامخضوا بينكم الرأي، فإذا رضيتم أمراً فأعرضوه علي»[105].

فاستقر رأي هؤلاء الأمراء على مكاتبة الملك الأفضل واستدعائه ليكون أتابكا لمحمد بن العزيز عثمان، وفي نفس الوقت عرضوا الأمر على القاضي الفاضل. فقال لهم: «قد أصبتم الرأي، واخترتم الذي اختاره السلطان الملك الناصر ـ رحمه الله ـ لكم، وهو ألين عريكة، وأسهل تناولاً من غيره»[106]. وهكذا يظهر جلياً مدى ما كان يتمتع به القاضي الفاضل من مكانة في الدولة الأيوبية، حتى بعد وفاة صلاح الدين. ولعله يتضح من خلال هذا الموقف الذي وقفه القاضي الفاضل بشأن اختيار أتابك للملك المنصور محمد بن العزيز، مدى حرصه على بقاء الملك في أبناء وأحفاد صلاح الدين، فضلاً عن اجتماع كلمة المسلمين وعدم فرقتهم، حتى يستطيعوا مواجهة الصعاب التي تحيط بهم.

وهكذا استمر القاضي الفاضل في عطائه المستمر وإخلاصه للبيت الأيوبي حتى وفاته في ربيع الآخر سنة 596هـ/ فبراير 1200م والتي صادفت نفس اليوم الذي دخل فيه الملك العادل مصر واستولى عليها من ابن أخيه الملك الأفضل وأصبح العادل سلطاناً للبلاد جميعاً في مصر والشام فضلاً عن أملاكه في الجزيرة[107].

وجدير بالذكر أن الفقهاء والعلماء في تلك الفترة لم يكتفوا بحث أولي الأمر على التصدي للصليبيين، بل أنهم نزلوا إلى ميدان الجهاد مقاتلين في سبيل الله، خالعين العمائم متزيين بزي الجند، حاملين السلاح دفاعاً عن

(105) ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 88 ـ 90، ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 2576.

(106) ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 90.

(107) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة 1970م، ص 88، رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 180 ـ 181.

الإسلام والمسلمين فكان في مقدمتهم الفقيه شهاب الدين بن البلاعي[108] الذي كان أحد الجنود المقاتلين في صد الضربات العنيفة التي وجهها الصليبيون بغتة ضد مدينة حماة عام 601هـ/ 1204م ناقضين الهدنة المنعقدة بينهم وبين صاحب حماة في العام الماضي[109].

فخرج إليهم صاحب المدينة الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقاتلهم، وانضم إليه جموع العامة من أهل حماة، ولكن استطاع الصليبيون بعد قتال مرير أن ينتصروا ويأسروا خلقاً كثيراً من أهل حماة وعادوا إلى بلادهم. وكان الفقيه شهاب الدين أحمد بن البلاعي قد أبلى بلاءاً حسناً في ميدان المعركة، ورمى فارساً ووقعت فرسه، ولكنه سقط أسيراً، وحمل إلى طرابلس مع غيره من الأسرى، ولكن الظروف ساعدته على الهرب، ورمى بنفسه في البحر، ثم تعلق بجبال بعلبك، وجاء بعد شدائد إلى أهله سالماً[110] ويذكر ابن واصل إن هذا الفقيه، كان أول أمره معمماً ثم خلع العمامة وتزيا بزي الجند[111] ولعل هذا يؤكد حمية وحرص الفقهاء على الجهاد بأنفسهم في سبيل الله، حماية للإسلام والمسلمين، ويضيف أبو شامة في عرضه لبطولة الفقيه ابن البلاعي قائلاً: «ولولا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحداً»[112].

---

(108) هو شهاب الدين أحمد بن شداد البلاعي، من قرية بلاعة وهي إحدى قرى حماة، وكان فقيهاً شجاعاً من أكابر أهل حماه. وقد تولى أمر حماه مرة، ثم سلمية مرة أخرى، انظر: أبو شامة: الذيل، ص 51، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 163، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 182 ـ 183.

(109) عن تفاصيل هذه الهدنة انظر: ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 291، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 154، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 181، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 186 ـ 187، الحنبلي: المصدر السابق، ص 339، راجع أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 188، Stevenson: Op. Cit., p. 296.

(110) أبو شامة: المصدر السابق، ص 51، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 163، ابن الوردى: المصدر السابق، ج 2، ص 183.

(111) ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 163.

(112) أبو شامة: المصدر السابق، ص 51.

وهناك أيضاً الفقيه سبط بن الجوزي[113] الذي قدم من بغداد عام 600هـ/ 1203م واتخذ من جامع دمشق مكاناً للوعظ، فكان الناس يتزاحمون على مجالسه للاستفادة منه[114]. وحظى عند ملوك بني أيوب، وقدموه وأحسنوا إليه[115]. ولم يكتف سبط ابن الجوزي بالوعظ بل شارك في الجهاد، ونزل إلى ساحة المعارك، فيذكر في تاريخه أنه قبل خروجه ضمن جيش المسلمين المتجه من دمشق إلى نابلس عام 607هـ/ 1210م، جلس بجامع دمشق وأخذ يعظ الناس ويحثهم على الجهاد ضد الغزاة، وقد تجمع عنده أعداد هائلة للاستماع إليه فحكى لهم حكاية لحثهم على الجهاد، فقال: «وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة، وقد وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها، وبعثت به إليه، وقالت: اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله، فعملت من الشعور التي اجتمعت عندي شكالاً للخيل للمجاهدين وكرفسات. ولما صعدت المنبر أمرت بإحضارها، فحملت على أعناق الرجال وكانت ثلاثمائة شكال. فلما رآها الناس صاحوا صيحة واحدة، وقطعوا مثلها. وقامت القيامة». ثم يستطرد السبط في وصف

(113) هو شمس الدين يوسف بن قزغلي بن عبد الله، سبط الإمام أبي الفرج بن الجوزي، كان فاضلاً عالماً، منكراً على أرباب الدولة ما هم عليه من المنكرات، وكان له صيت وسمعة في مجالس وعظه، وقبول عند الملوك وغيرهم. وكان حسن الصورة، طيب الصوت، حسن الوعظ، كثير الفضائل والمصنفات. وهو مؤرخ من الكتاب الوعاظ، ولد ونشأ ببغداد ورباه جده. وانتقل إلى دمشق فاستوطنها ومات فيها. ومن كتبه: مرآة الزمان في تايخ الأعيان، وتذكرة خواص الأمة بذكر خصائص الأئمة، والجليس الصالح في أخبار موسى بن أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق، وغيرها من الكتب، توفي سنة 654هـ/ 1256م. انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ص 195، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 142، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 206 ـ 207، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 401، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 132 ـ 135، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 266 ـ 267، انظر أيضاً: الزركلي: المرجع السابق، ج 9، ص 324.

(114) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 336، أبو شامة: المصدر السابق، ص 48، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 133.

(115) العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 133.

ما حدث بعد نزوله من المنبر بعد وعظه للناس في ذلك اليوم قائلاً: فلما نزلت من المنبر قام المبارز (والي دمشق) يطرق لي ويمشي بين يدي إلى باب الناطفانيين، فتقدم إلى فرسي وأمسك بركابي واركبني، وخرجت من باب الفرج إلى المصلى، وجميع من كان بالجامع بين يدي وسرنا من الغد إلى الكسوة ومعنا خلق مثل التراب. وكان معنا قرية واحدة يقال لها زملكاً من قرى دمشق ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح وأما من غيرها فخلق كثير، والكل خرجوا احتساباً. وجئنا إلى عقبة فيق[116]. والطير لا يقدر أن يطير من خوف الفرنج، فسرنا على الجادة إلى نابلس.

وعندما اقترب السبط وهذا الحشد الهائل من المسلمين الذين معه من نابلس، خرج إليهم الملك المعظم عيسى بن العادل واستقبلهم بفرحة غامرة. ثم جلس السبط الوعظ بجامع نابلس لتحميس الناس على قتال الصليبيين، وحضر الملك المعظم هذا الوعظ مع المسلمين، وبعد أن انتهى السبط من وعظه قال: «وخرجنا إلى نحو بلاد الفرنج، فخربنا وهدمنا وقطعنا أشجارهم، وأسرنا جماعة، وقتلنا جماعة، ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا. فأقمنا أياماً ثم عدنا سالمين غانمين إلى الطور المطل على الناصرة، والمعظم معنا»[117].

يتضح مما تقدم إلى أي حد كان لوعظ سبط بن الجوزي تأثيره العميق في قلوب المسلمين، مما جعلهم يتدافعون وراءه طلباً للجهاد في سبيل الله. وأنه لم يكتف بالجلوس في المسجد للوعظ، بل خرج تحت قيادة المعظم عيسى، وقاتل وشارك يداً بيد مع المجاهدين في كل ما فعلوه ببلاد العدو،

(116) عقبة فيق: مدينة بالشام بين دمشق وطبرية، ويقال أفيق بالألف. وعقبة فيق ينحدر منها إلى الغور غور الأردن ومنها يشرف على طبرية وبحيرتها. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 4، ص 286.

(117) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 355 ـ 356، أبو شامة: المصدر السابق، ص 69 ـ 70، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 63 ـ 64، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 111.

ثم عادوا جميعاً سالمين. وهكذا دائماً كان الفقهاء والعلماء سباقين إلى كل عمل يعود بالنفع والخير على الإسلام والمسلمين، وكانوا القدوة الحسنة لبقية المسلمين.

وهناك أيضاً مواقف أخرى لهذه الصفوة المختارة من الفقهاء والعلماء كان لها أكبر الأثر في ازدياد الحماسة عند المسلمين وإحراز النصر على الأعداء. فكان من أهمها ذلك الموقف الذي وقفه هؤلاء الفقهاء أزاء العدوان الصليبي على دمياط بقيادة ملك بيت المقدس حنا دي بريين عام 615هـ/ 1218م في الحملة الصليبية الخامسة فعندما نجح الصليبيون في الاستيلاء على برج السلسلة[118] مدخل دمياط أرسل الملك الكامل محمد، الفقيه شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية[119] إلى أبيه الملك العادل يخبره بحقيقة

(118) برج السلسلة: من شمال دمياط يصب ماء النيل إلى البحر الملح في موضع يقال له الأشتوم، عرض النيل هناك نحو مائة ذراع وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس، لا يخرج مركب إلى البحر الملح ولا يدخل إلا بإذن ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 473. انظر كذلك وصف البرج في أبو شامة: المصدر السابق، ص 109.

وعن تفاصيل حصار دمياط في الحملة الخامسة وسقوط برج السلسلة انظر:
Oliver of Paderborn: Op. Cit., pp. 62-68, Anonymous, Mermorial de Podestals de Reggio: Op. Cit., Vol. II, pp. 589-591.

ومن المراجع العربية (انظر محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص 90، وما بعدها. حامد غنيم: المرجع السابق، ج 2، 208 ـ 219.

(119) هو الشيخ أبو الحسن محمد بن عمر بن علي بن حموية، شيخ الشيوخ بمصر والشام، وهو والد أولاد شيخ الشيوخ الذين اشتهروا بالأمر والوزارة بمصر في أيام العادل أبي بكر بن أيوب وابنه الكامل محمد وذريته. وكان أبوه عمر قد ولاه نور الدين زنكي، خوانك الشام وكان يحترمه ويحبه، ومات سنة 577هـ. وصدر الدين بدمشق عند أبيه فولاه صلاح الدين المشيخة مكان أبيه، وزوجه الشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري ابنته، ثم تزوج ابنة ابن أبي عصرون وأولدها أولاده الأربعة المشهورين، عماد الدين عمر، وفخر الدين يوسف، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن. وكان صدر الدين قد ناب عن القطب النيسابوري في التدريس بالزاوية الغربية بجامع دمشق، وبمدرسة جاروخ، وانتفع بصحبته، وكان قد نفعه في بلاد العجم، ثم ولاه العادل بمصر التدريس بالشافعي، ومشهد =

الأوضاع ويستصرخ به[120].

فلما وصل الشيخ صدر الدين إلى العادل وأخبره بذلك، تألم تألماً شديداً ودق بيده على صدره ومرض مرض الموت. كما كان وقع هذا الخبر السيء شديداً بالنسبة للفقهاء والعلماء. فيذكر أبو شامة: «واذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة، وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي[121]، رحمه الله، ورأيته يضرب يداً على يد، ويعظم أمر ذاك. وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام[122] يسأل

= الحسين، والنظر في الخانقاه الكبرى بدار سعيد السعداء بين القصرين، ودار الوزارة. وكان فاضلاً فقيهاً لا يتكلم فيما لا يعنيه، وكانت له الحرمة الوافرة عند العادل بن أيوب وأولاده. ولما استولى الفرنج على دمياط بعثه الكامل إلى الخليفة الناصر يستنجده على الفرنج فمرض بن حران والموصل، ووصل إلى الموصل في منتصف جمادى الآخرة، فتوفي بها سنة 617هـ.

انظر: ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 425، أبو شامة: المصدر السابق، ص 125، ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 257، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 127، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 100، المقريزي: الخطط، ج 2، ص 33 ـ 34.

(120) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 389، أبو شامة: المصدر السابق، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 118، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 86، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 222.

(121) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الأحد بن عبد الغالب الهمداني المصري السخاوي المقرىء النحوي، الملقب علم الدين، كان قد اشتغل بالقاهرة على الشيخ أبي محمد القاسم الشاطبي المقرىء، وأتقن عليه علم القراءات والنحو واللغة، وعلى أبي الجود غياث بن فارس بن مكي المقرىء، وسمع بالإسكندرية من السلفي وابن عوف، وبمصر من البوصيري وابن ياسين، ثم انتقل إلى مدينة دمشق وتقدم بها على علماء فنونه واشتهر، وكان للناس فيه اعتقاد عظيم، وشرح «المفصل» للزمخشري وشرح القصيدة الشاطبية في القراءات، وكان قد قرأها على ناظمها، وله خطب وأشعار، وكان متعيناً في وقته. توفي بدمشق سنة 643هـ. انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ص 177، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 340 ـ 341، السبكي: المصدر السابق، ج 5، ص 126، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 222، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 354.

(122) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن بن محمد المهذب، الشيخ =

عنه، فقال: هو قفل الديار المصرية. وصدق رحمه الله تعالى، فإني حين رأيته في سنة ثمان وعشرين، بان لي صحة ما أشار الشيخ إليه»[123].

وبعد وفاة السلطان العادل في جمادى الآخرة سنة 615هـ/ أغسطس سنة 1218م، بسبب انزعاجه من خبر سيطرة الفرنج على برج السلسلة، ترك لأولاده تركة ثقيلة، فوقع على كاهل ولده الكامل بمصر مهمة طرد الصليبيين من الأراضي المصرية، وعلى ابنه المعظم بدمشق حراسة جبهة الشام والضغط على الصليبيين لإجبارهم على ترك مصر، فضلاً عن مساعدة أخيه الكامل[124].

وقد أدى سقوط برج السلسلة في أيدي الصليبيين إلى حالة من الفوضى والاضطراب في صفوف المسلمين مما ساعد على وقوع مدينة دمياط في أيدي الصليبيين في شعبان عام 616هـ/ نوفمبر 1219م[125]، وعندئذ طلب السلطان الكامل من أخيه المعظم صاحب دمشق التوجه إلى الشام

= عز الدين بن عبد السلام أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي، شيخ المذهب ومفيد أهله، وله مصنفات كثيرة منها التفسير، واختصار النهاية، والقواعد الكبرى والصغرى، وكتاب الصلاة والفتاوى الموصلية وغير ذلك. تفقه في بداية تعلمه على القاضي عبد الصمد الحرستاني، وكان من قضاة العدل الزاهدين الورعين. ودرس الأصول على الشيخ سيف الدين الآمدي، وتلقى الحديث والفقه الشافعي على الإمام فخر الدين بن عساكر الورع الزاهد، وسمع الحديث من الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم بن عساكر، وشيخ الشيوخ عبد اللطيف بن أبي سعد البغدادي، وأفاد الطلبة، ودرس بعدة مدارس بدمشق، وولى خطابتها ثم سافر إلى مصر، ودرس بها وخطب وحكم. وانتهت إليه رسائل الشافعية، وقصد بالفتاوى من الآفاق.. وتوفي بمصر سنة 660هـ. انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ص 216، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 215، ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 1، ص 594 ـ 596، السبكي: المصدر السابق، ج 8، ص 209، 215، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 248 ـ 249، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 208، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 301.

(123) أبو شامة: المصدر السابق، ص 109.

(124) ابن واصل: المصدر السابق، ج 3، ص 273 ـ 276.

(125) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 379 ـ 380، ص 398، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 396 ـ 397، أبو شامة: المصدر السابق، ص 116، =

ليشغل الفرنج، وليستجلب العساكر من المشرق. فكتب المعظم إلى سبط بن الجوزي الذي كان بدمشق، يعرفه ما جرى على دمياط، ويحثه على تحريض الناس، ويطلب منه أن يخرج على رأس المقاتلين للقائه في نابلس. وعندئذ نفذ سبط بن الجوزي أوامر سيده فاتجه إلى جامع دمشق، وقرأ كتاب المعظم على الناس، فأجابوه بالسمع والطاعة وتجهزوا. فلما حل ركابه بالساحل، وقع التقاعد... وكان تقاعدهم سبباً لأخذه الثمن والخمس من أموالهم والمؤاخذة على أفعالهم. فكتب المعظم إلى سبط بن الجوزي يطلب منه حضوره بمفرده. إذا لم يصاحبه الناس، فخرج إلى الساحل والتقى بالمعظم عند قيسارية، وظل بها حتى تم فتحها عنوة، ثم واصلت جيوش المعظم وفي ركبها السبط بن الجوزي حتى وصلت الثغر ففتحوه ثم عادوا إلى دمشق(126).

وهكذا يتبين مما ذكره سبط بن الجوزي مدى خطورة الدور الذي قام به من أجل تحريض أهل الشام للمشاركة في الجهاد ضد الصليبيين بدمياط، وأنه شارك المعظم أثناء فتح قيسارية، مشاركة فعلية. وما كان سبط بن الجوزي إلا مثالاً لما كان يقوم به الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين، بالكلمة والسلاح، هدفهم حماية الإسلام والمسلمين ودحر أعداء الدين.

ومن المواقف الحاسمة أيضاً التي سجلها الفقهاء في نفس هذا العام، موقفهم من الملك المعظم عيسى صاحب دمشق عندما خرب القدس خشية من أن يأخذها الصليبيون. فلما شرع في تخريب أسوارها، وقعت في البلد

= أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 122، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 203، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 91، وانظر أيضاً:

Oliver of Paderborn: Op. Cit., p. 68. Eracles: Op. Cit., p. 316.

(126) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 397، أبو شامة: المصدر السابق، ص 117، الحنبلي: المصدر السابق، ص 305.

ضجة عظيمة، وحزن الناس جميعاً على ذلك، وتأسفوا عليه غاية الأسف[127]، وخرج النساء والبنات، والشيوخ، والعجائز، والشبان والصبيان إلى الصخرة والمسجد الأقصى، وقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم حزناً، وخرجوا هاربين من القدس إلى مصر وإلى الكرك ودمشق. وقام العلماء والفقهاء باستنكار ما حل بالقدس من خراب، وذم بعض أهل العلم المعظم على هذا الفعل قائلاً:

في رجب حلل الحميا ... وأخرب القدس في المحرم[128]

وكذلك قال القاضي مجد الدين بن عبد الله الحنفي - قاضي الطور - في خراب القدس:

مررت على القدس الشريف مسلماً ... على ما تبقى من ربوع كأنجم

ففاضت دموع العين متى صبابة ... على ما مضى من عصرنا المتقدم

وقد رام علج أن يعفى رسومه ... وشمر عن كفى لئيم مذمم

فقلت له شلت يمينك خلها ... لمعتبر أو سائل أو مسلم

فلو كان يفدى بالنفوس فديته ... بنفسي وهذا الظن في كل مسلم[129]

---

(127) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 32.

(128) أبو شامة: المصدر السابق، ص 116، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 91، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 245.

(129) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة، ابن تغرى بردى: نفس المصدر والصفحة. أما عن القاضي مجد الدين بن عبد الله الحنفي قاضي الطور فلم نعثر له على ترجمة في كتب التراجم التي بين أيدينا. فقط ورد اسمه بجانب تلك الأبيات السابقة - يهجو شاعرنا في البيت الأول بأن هذا الرجل الذي حلل شرب الخمر في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم وفي الوقت نفسه دمر القدس في الشهر الحرام ليس ببعيد عنه أن يفعل ما هو أشد من ذلك في الأشهر الحرم فهو لا يرعى زماناً ولا مكاناً.
ويتحسر الشاعر في الأبيات الثانية على ما آل إليه القدس الشريف عندما لوثته أيدي الأعداء ولقد تفجرت أحزانه وهاجت نفسه عندما مر على القدس مسلماً وهو في حالة يرثى لها فقد عفى عليه الزمن ولم يبق منه إلا رسوم مقفرة موحشة، فأجهش =

وكذلك كان لسبط بن الجوزي فضل كبير في اتحاد كلمة بني أيوب في مصر والشام ووقوفهم يداً واحدة ضد الصليبيين الموجودين في مصر مما ساعد على ضعف قواهم وانسحابهم واسترداد المسلمين لدمياط عام 618هـ/ 1221م[130] فيذكر في مؤلفة مرآة الزمان: «كنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة، فإنهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابلس، فاجتمعت بالمعظم على حمص في ربيع الآخر، فقال لي: قد سحبت الأشرف إلى هنا بأسناني وهو كاره، وكل يوم أعتبه في تأخره وهو يكاشر، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر، وهو صديقك، فاشتهى تروح إليه فقد سألني عنك مراراً. ثم كتب إلى أخيه كتاباً بخطه، نحو ثمانين سطراً، فأخذته ومضيت إلى سلمية[131]، وبلغ الأشرف وصولي، فخرج من الخيمة والتقاني، وعاتبني على انقطاعي عنه، وجرى بيني وبينه فصول. وقلت له: المسلمون في ضائقة، فإذا أخذ الفرنج الديار المصرية، ملكوا إلى حضرموت، وعفوا إلى مكة والمدينة والشام، وأنت تلعب. قم الساعة وأرحل. فقال: ارمو الخيام والدهليز، وسبقته إلى حمص، والمعظم عينه إلى الطريق، فلما قيل له قد ركب والتقاني، فقال: ما نمت البارحة، ولا أكلت اليوم شيئاً. فقلت غداً يصبح أخوك على حمص. فدعا لي. ولما كان

= شاعرنا بالبكاء متحسراً على تلك العصور النيرة وعلى تلك المآثر العظيمة، وعلى الرغم بما آلت إليه تلك الديار من رسوم وأطلال إلا أن علج الروم يريد أن يمحو كل أثر للرسوم والأطلال مشمراً عن كف لئيمة فارعة، الأمر الذي حدا بالشاعر أن يقول لهذا العلج شلت يمينك التي تريد أن تنتزع حتى هذه الرسوم الباقية دعها لمعتبر أو سائل أو مسلم، فهذا البلد يفدى بالنفس والنفيس وهذا هو الظن بكل مسلم.

(130) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 378 ـ 380، أبو شامة: المصدر السابق، ص 128 ـ 130، ابن واصل: المصدر السابق، ج 4 ص 96 ـ 105. انظر أيضاً:
Oliver of Paderborn: Op. Cit., pp. 131-132, Roger of Wendover: Op. Cit., p. 142, Philip de Novare: Op. Cit., p. 22.

(131) سلمية: هي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماه وكانت تعد من أعمال حمص على الطريق إلى حمص. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 240، أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص 445.

الغد أقبلت الأطلاب، وجاء طلب الأشرف... وساروا إلى مصر غرة جمادى الآخرة»[132].

وكانت فرحة الفقهاء والعلماء عظيمة بعودة دمياط إلى المسلمين، فأخذوا يتبارون في إنشاء قصائد التهنئة بهذا النصر العظيم. ومنهم الشيخ أبو الحسن السخاوي، فأنشد قصيدة للتهنئة بفتح دمياط، نذكر منها بعض الأبيات:

سرى الملك المولى المعظم في الدجى فأطلع نجم النصر بعد مغيبة

ورد على الإسلام بعد كآبة سروراً وآوى الدين بعد شحوبه

تجلس بعيسى غمها واعتدى بها فريداً وأضحى بحرها من نصيبه[133]

وكذلك أنشد القاضي بهاء الدين زهير بن محمد بن علي القوصي[134]، يهنىء السلطان الكامل محمد عند فتح دمياط:

---

(132) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 408، أبو شامة: المصدر السابق، ص 128 ـ 129، النويري: المصدر السابق، ج 27، ص 315 ـ 316.

(133) أبو شامة: المصدر السابق، ص 129.

المعنى العام: هنا يلبس الشاعر ممدوحه أجمل حلة مادحاً إياه بأنه ذلك الملك العظيم الذي استطاع أن يقشع تلك الظلمة التي أحاطت بالمسلمين ويعيد إليها نجمها بعد أن أفل زمناً طويلاً فرد على الإسلام حبوره وسعادته ماسحاً كل كآبة علت وجهه في الأيام الماضية جاعلاً البلاد برها وبحرها تنعم في ظل رايته الإسلامية العظيمة بالنعيم والسعادة.

(134) هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبي العتكي بهاء الدين الكاتب، من فضلاء عصره، وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً، ومن أكبرهم مروءة، كان قد اتصل بخدمة السلطان نجم الدين أيوب ابن السلطان الكامل بالديار المصرية، وتوجه في خدمته إلى البلاد الشرقية، وأقام بها إلى أن ملك الملك الصالح نجم الدين مدينة دمشق، فانتقل إليها في خدمته... ولما ملك الصالح نجم الدين أيوب مصر قدم بهاء الدين زهير إليها في خدمته، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة 637هـ. وكان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الصالح نجم الدين أيوب. وكان مولده سنة 581هـ بمكة ونشأ بقوص، وأقام بالقاهرة وتوفي بها سنة 656هـ. انظر: ابن خلكان: المصدر =

هو الكامل المولى الذي إن ذكرته ... فيا طرب الدنيا ويا فرح العصر
به ارتجعت دمياط قهراً من العدى ... وطهرها بالسيف والملة الطهر
لك الله من ملك إذا جاء أوسطا ... فناهيك من عرف وناهيك من نكر

يقصر عنه المدح من كل مادح ... ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر

ومنها:

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها ... لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
ولو لم يقم في الله حق قيامه ... لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا عزمة كاملية ... لخافت رجال بالمقام وبالحجر[135]

ومن ذلك نرى شعور الفرح لدى الفقهاء والعلماء بهذا النصر ومدى

= السابق، ج 2، ص 332 ـ 338، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 62، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 224، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 413، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 276.

(135) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 103، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 302، إبراهيم جزيني: شرح ديوان بهاء الدين زهير، بيروت 1968، ص 98 ـ 99 المعنى العام: يسبغ الشاعر على ممدوحه صفات عظيمة تفوق الوصف وحجته في ذلك أن ممدوحه رجل عظيم يستحق المدح لما يتميز به هذا الملك من شمائل تطرب الدنيا ويفرح العصر لذكره.. فبه رجعت دمياط غصباً عن أنف أعدائها فطهرها مما كان فيها ولكن.. بأي شيء طهرها؟ بالسيف والملة الطاهرة طهرها بالجهاد وفي سبيله وبإقامة الشريعة الإسلامية على ربوعها.. فيا له من ملك عظيم إن كان زائراً أو كان فاتحاً.
ثم يعود الشاعر إلى المبالغة المفرطة في مدح ممدوحه فإنه مهما حاول إنسان مدحه فسيقصر عن ذلك حتى ولو جعله كالشمس المنيرة أو البدر الساطع وهذه الفرحة الغامرة لم تحزها دمياط فقط بل إنها قد شملت مصر وتعدتها إلى بغداد والتي فاقت الجميع بفرحتها بهذا النصر العظيم، ولولا أن هذا الملك لم يكن قائماً بحق الله لما استطاع أن يجعل هذه البلاد تنعم بالأمن وتسلم من الذعر. ثم يقسم الشاعر يقول بأنه لولا هذه العزيمة القوية والإرادة العظيمة ـ بعد الله ـ لحام حول المقام والحجر أعداؤنا.

إحساسهم بأهمية عودة دمياط إلى المسلمين، فعبروا عن تلك الفرحة بهذه الأبيات التي سجلها لهم التاريخ تخليداً لمواقفهم التي وقفوها في الجهاد ضد الصليبيين.

ولكن ما لبث أن دب الخلاف بين أبناء العادل الأيوبي[136] مرة أخرى بعد عودة دمياط إلى المسلمين، فكان الكامل محمد يؤيده الأشرف موسى في جانب والمعظم عيسى صاحب دمشق في جانب آخر، مما أدى إلى أضعاف الجبهة الإسلامية، خاصة بعد أن لجأ كل من الفريقين المتنازعين إلى الاستعانة بالقوى الخارجية، فقد استنجد الملك المعظم عيسى بالخوارزمية، في حين استنجد الملك الكامل محمد بالامبراطور الألماني فردريك الثاني[137].

وقد قام الفقهاء والعلماء خلال هذا الصراع بدور هام، وكان من أبرز من ظهر منهم الأمير الفقيه فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر[138]، فكان أحد العلماء العاملين بالدولة في مجال التدريس،

---

(136) عن هذا الخلاف انظر ما سبق ص 112 ـ 113 من هذا البحث.

(137) أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 136 ـ 138، انظر أيضاً: سعيد عاشور: المرجع السابق، ص 108، رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 326 ـ 327، ولمزيد من التفصيلات حول هذا الصراع انظر: أسامة زيد: الخوارزمية، ص 250 ـ 252، ومن المصادر الأجنبية انظر: Phlip de Novare: Op. Cit., p. 26-76.

(138) هو الابن الأصغر لشيخ الشيوخ صدر الدين حمويه، ووالدته ابنة القاضي شهاب الدين بن أبي عصرون، وهو وإخوته أرضعتهم أمهم مع الملك الكامل بن العادل، فأصبحوا إخوته من الرضاع، ولد فخر الدين يوسف بدمشق بعد الثمانين وخمسمائة، وتربى وتعلم بها، ثم تنقل بين المدن الشامية لتلقي العلم، وسمع الحديث من أبي الحسن الطبري ومحمد بن يوسف الغزنوي وغيرهما. ثم وفد مع والده إلى مصر، وعاش بها مع إخوته مقرباً من أبناء البيت الأيوبي. ولم يتقيد فخر الدين بالمشيخة والعلوم الدينية، وإنما توسع في بقية العلوم الأخرى الفلسفية والحكمية، وشارك في كل فن حتى أصبح عالماً وفقيهاً. وقد شغف بدراسة العلوم وشارك مثله مثل إخوته في الحركة العلمية في العصر الأيوبي. فتولى التدريس بالمدرسة الناصرية بجوار قبر الشافعي، ودرس كذلك بالمدرسة المجاورة للمشهد الحسيني بالقاهرة. واستمر فخر الدين يوسف يشارك في الحياة السياسية مع أبناء البيت =

وقد جعله الملك الكامل محمد أحد الأمراء وألبسه ملابسهم، ونادمه وبعثه مندوباً عنه إلى الامبراطور فردريك الثاني في صقلية سنة 624هـ/ 1226م يطلب منه الحضور إلى الشام والساحل ليتسلم بيت المقدس وكل فتوح صلاح الدين بالساحل، مقابل مساعدته ضد أخيه المعظم عيسى وحلفائه الخوارزمية[139].

وكان سبب اختيار الملك الكامل محمد لفخر الدين لأداء هذه المهمة الخطيرة هو ما تمتع به الأمير الفقيه من علم واسع وذكاء مفرط، وشخصية قوية، خاصة وأن الملك الكامل محمد كان يعلم أن الامبراطور فردريك الثاني شاعراً محباً للأدب والفن، فضلاً عن إجادته الألمانية والإيطالية واللاتينية والعربية، وكان محباً للحكمة والمنطق والطب ومتبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات[140]، فكان لا بد أن يكون المبعوث للتفاوض معه على مستوى عال من العلم والثقافة.

وعلى ذلك يعد الدور الذي قام به هذا الفقيه العالم من الأدوار الهامة في التاريخ الإسلامي، عمل من خلال سفارته الموفد فيها على توطيد

= الأيوبي حتى استشهاده سنة 647هـ/ 1250م بالمنصورة. انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ص 184، ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 169 ـ 170، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 180، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 264، السبكي: المصدر السابق، ج 5، ص 152 ـ 153، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 190، المقريزي: الخطط، ج 2، ص 34، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 363، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 238 ـ 239.

(139) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 206 ـ 207، 233 ـ 234، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 137 ـ 138، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 219، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 221 ـ 223، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 357، الحنبلي: المصدر السابق، ص 310 ـ 311، انظر أيضاً:
Roger of Wendover: Op. Cit., p. 150, Philip de Novare: Op. Cit., p. 27, cf. also: Jean Richard: The Latin Kingdom in Jerusalem, Oxford, 1979, p. 232. Setton: Op. Cit., t. II, p. 449, Stevenson: Op. Cit., pp. 307-310.

(140) Philip de Novare: Op. Cit., pp. 33-34, Jean Richard: Op. Cit., p. 232.
انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 327.

العلاقات بين الملك الكامل محمد وبين الامبراطور فردريك الثاني، فضلاً عن التقارب الكبير الذي حدث بينه وبين الامبراطور الألماني، وما نتج من أعجاب الامبراطور بفخر الدين لمهارته وبراعته في فنون الحرب والسياسة، ولغزارة علمه، ولذلك قام الامبراطور بمنح فخر الدين رتبة «الفروسية» وهي رتبة رفيعة لا تمنح إلا للجدير بها[141].

وعندما وصل فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ في منتصف عام 624هـ/ 1226م إلى جزيرة صقلية، استقبله الامبراطور فردريك الثاني وأحسن لقاءه، فأبلغه فخر الدين بترحيب الملك الكامل محمد بقدومه إلى عكا والتنازل له عن بيت المقدس مقابل مساعدته ضد أخيه وحلفائه من الخوارزمية. فرحب فردريك بهذا العرض المغري، كي يحصل على بيت المقدس بدون حرب[142].

ويبدو أن الامبراطور قد أعجب بعلم وحكمة فخر الدين يوسف، فقربه إليه، وكانت تجري بينهما محاورات في أشياء شتى.

وبعد عودة فخر الدين يوسف من صقلية، أرسل فردريك الثاني سفارة رداً على سفارة الملك الكامل محمد تحمل هدايا سنية وتحفاً غريبة، فتلقى الكامل هدية الامبراطور بالسرور البالغ وأكرمه إكراماً زائداً، كما اهتم بدوره بإعداد هدية فاخرة للامبراطور[143].

وعلى ذلك قرر الامبراطور فردريك الثاني الخروج في الحملة المعروفة باسم الحملة الصليبية السادسة 625 ـ 626هـ (1228 ـ 1229م). وعندما وصل

---

(141) جوانفيل: المصدر السابق، ص 108، انظر أيضاً المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 232، ومن المراجع الأجنبية راجع: Stevenson, Op. Cit., p. 311.

(142) الحنبلي: المصدر السابق، ص 311 ـ 312، انظر أيضاً رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 336.

(143) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 223، راجع كذلك:
Roger of Wendover: Op. Cit., p. 151, Eraches: Op. Cit., t. II, p. 369.

بعساكره إلى عكا أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما علم بزوال سبب استدعائه إلى الشرق - وهو وفاة الملك المعظم والذي كان مصدر الخطر على الملك الكامل محمد - فأصبح فردريك في موقف لا يحسد عليه لأنه عندما خرج من بلاده كان متأكداً من اعطائه بيت المقدس دون الخوض في قتال بينه وبين المسلمين، بدليل أنه لم يحضر معه سوى خمسمائة فارس وهي قوة صغيرة لا يستطيع أن يخوض بها معركة ضد المسلمين. وفي الوقت نفسه كان لا ينتظر أن يمده الصليبيون بالشام بأية معونة، لأنه كان محروماً من الكنيسة[144].

ولهذا وجد الامبراطور أن سياسة الملك الكامل محمد تجاهه قد تغيرت، خاصة بعد أن اقتسم مع أخيه الملك الأشرف موسى، أملاك أخيهما المعظم عيسى بعد وفاته[145]. واستقر الوضع بين أبناء البيت الأيوبي على ذلك، ولذا لم يعد أمام الامبراطور سوى استخدام كل الوسائل الدبلوماسية مع الملك الكامل محمد للوصول إلى غرضه والحصول على بيت المقدس حتى يحتفظ بعرشه في غرب أوروبا[146].

وكان الملك الكامل محمد في ذلك الوقت قد استغنى عن مساعدة الامبراطور فردريك وتأييده ولكن لم يمكنه دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق، ولذا كان يراسل الامبراطور دائماً ويلاطفه ويماطله في تسليم بيت

---

(144) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 208، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 224، ويذكر فيليب النافاري أنه بعد وصول أسطول الأمبراطور بأيام قليلة، وصل رهبان فرنسيين يحملون رسائل من البابا تشجب أفعال فردريك، وتأمر كل المسيحيين المخلصين بالابتعاد عن فردريك وجيشه، وذلك حتى يعلن توبته ويعود إلى الكنيسة انظر:
Philip de Novare: Op. Cit., pp. 33-34, cf. also. Stevenson: Op. Cit., pp. 309-310.

(145) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 230 - 231، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 140 - 141، رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 327 - 328، انظر أيضاً:
Stevenson: Op. Cit., pp. 310-311.

(146) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 269، راجع أيضاً:
Eracles: Op. Cit., pp. 369-370.

المقدس[147]. ولعل ما شجع الملك الكامل محمد على موقفه هذا تلك الرسالة التي وصلته من البابا جريجوري التاسع (1227 ـ 1241م). داعياً إياه إلى عدم تقديم أية تنازلات لفردريك وعدم تسليمه بيت المقدس[148].

وهكذا لم يعد هناك طريق أمام هذا الموقف لاستئناف السفارات الدبلوماسية بين الطرفين، ولهذا عاد الفقيه فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ للتردد في السفارة بين الملك الكامل محمد والامبراطور فردريك بعكا في محاولة للتقريب بين وجهتي النظر بينهما. وقد استمرت المفاوضات فترة طويلة أظهر فيها الامبراطور فردريك الثاني تذلله واستعطافه الملك الكامل. ومما تجمع عليه المصادر العربية والأجنبية أن الامبراطور ـ في أثناء هذه المفاوضات أرسل إلى الملك يقول له: «إن الامبراطور يقدم لك التحية والاحترام ويود أن يعتبرك أخاً وصديقاً له، وأنه لم يحضر إلى الشرق طمعاً في تحقيق نصر لشخصه عندما طلب استعادة الأراضي السابق أخذها من الصليبيين. وإنما كان حضوره بهدف الحج وزيارة الأماكن المقدسة للمسيحيين، وأنه في نفس الوقت يعتذر عن طلبه هذا، فلولا خوفه على ضياع جاهه وسمعته في أوروبا ما كلف السلطان شيئاً من ذلك، وأنه ما له غرض في القدس أو سواها، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج»[149].

---

(147) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 234 ـ 235، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 228 ـ 229، رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 328 ـ 329، راجع أيضاً: Philip de Novare: Op. Cit., pp. 34-35.

(148) Philip de Novare: Op. Cit., pp. 24-35.

ولمعرفة الأسباب التي دعت البابا إلى ذلك انظر: سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى القاهرة 1964م، ج 1، ص 402 ـ 414، وكذلك راجع:

Chronique de Richard de Saint- Germain, Op. Cit., pp. 585-586, cf also: Rilley Smith: The Crusaders in Syria and the Holy Land, London, 1971, pp. 31-32.

(149) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 230، ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 243، الحنبلي: المصدر السابق، ص 312، انظر أيضاً:

Eracles: Op. Cit., t. II, pp.369-370, Philip de Novare: Op. Cit., p. 35.

وقد وافق الملك الكامل محمد أخيراً في ربيع الأول سنة 626هـ/ فبراير 1229م على عقد اتفاقية يافا بين الطرفين لمدة عشر سنوات حصل الصليبيون بمقتضاها على بيت المقدس، وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا على أن يبقى بيت المقدس على ما هي عليه من الخراب، ولا تجدد أسوارها، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين، وتقام فيه شعائر الإسلام[150].

وأثارت هذه المعاهدة موجة عارمة من السخط والأسى في الرأي العام الإسلامي كله، وعند الفقهاء والعلماء بوجه خاص. وقد اعتبر المسلمون أن تسليم بيت المقدس للصليبيين بهذه السهولة يعتبر تفريطاً في حق الإسلام والمسلمين وأصبحت هذه المعاهدة وصمة عار في جبين البيت الأيوبي بصفة عامة، وللملك الكامل محمد بصفة خاصة[151].

وكان الفقهاء والعلماء هم أول المستنكرين لما فعله الكامل، وفي ذلك يذكر المقريزي: وبعث السلطان فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة

---

(150) ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 481، أبو شامة: المصدر السابق، ص 154، ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 241 ـ 243، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 222، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 133، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 230 ـ 231، الحنبلي: المصدر السابق، ص 311، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 116، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 358. وعن تفاصيل وبنود الاتفاقية انظر: Philip de Novare: Op. Cit., pp. 35-38, Ernoul: Op. Cit., pp. 464-465, Roger of Wendover: Op. Cit., p. 152, Eracles: Op. Cit., t. II, p. 374, Chronique de Richard de Saint- Germain: Op. Cit., t. I, p. 587., cf. also Riley-Smith: Op. Cit., p. 32. Jean Richard: Op. Cit., pp. 234-235, Stevenson: Op. Cit., pp. 311-313, Grousset: Op. Cit., t. III, p. 307.

(151) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 432، أبو شامة: المصدر السابق، ص 154، ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 246، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 231، الحنبلي: المصدر السابق، ص 312، ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 116، راجع أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 231، حيث يذكر أنه ما من معاهدة لقيت ما لقيته هذه المعاهدة من الرفض من المسلمين والمسيحيين.

والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعز عليه ذلك، وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات، وزجرهم، وقيل لهم ـ امضوا إلى حيث شئتم ـ فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشفاعات عليه في سائر الأقطار»[152].

وعقب ذلك تسلم الصليبيون القدس في ربيع الآخر من هذه السنة 626هـ/ مارس 1229م. ثم طلب الامبراطور من الملك الكامل محمد أن يأذن له في زيارة القدس فأجابه إلى طلبه، وسير معه القاضي شمس الدين قاضي نابلس[153]، ليكون في خدمته،حتى يزور القدس ويرجع إلى عكا.

ومن الأمور التي استنكرها المؤرخون على هذه الزيارة، ذلك التصرف الذي قام به قاضي نابلس المصاحب للامبراطور في تلك الزيارة ـ وهو منعه للمؤذنين بالقدس ـ بناء على أوامر سلطان مصر ـ بعدم الأذان في الحرم أثناء وجود الامبراطور به، ولكن لما علم الامبراطور بذلك الوضع لام قاضي نابلس وقال له: «اخطأتم يا قاضي! تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي. فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا هذا أول ما تنقصون عندنا[154]، ويضيف ابن واصل في هذا

(152) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 231.

(153) لم نعثر على ترجمة له في كتب التراجم. ولم يذكر المؤرخون المعاصرون له اسمه كاملاً. فقد كتب عنه ابن واصل أنه «كان جليلاً في الدولة متقدماً عند ملوك بني أيوب» انظر ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 244، ويذكره ابن واصل في موضع آخر قائلاً: «والقاضي شمس الدين قاضي نابلس والقدس، وما معهما من البلاد، وكان متقدماً عند الملك الناصر وأبيه الملك المعظم من قبل، ومحترماً عند ملوك البيت لكرمه ورياسته»، ج 5، ص 15، وكذلك يذكر السبط عنه «وهو الذي سلم إليه (أي إلى الأمبراطور) القدس»، انظر: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 434، العيني: المصدر السابق، ج 18، لوحة 83، وانظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 333.

(154) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 433 ـ 434، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 231، العيني: المصدر السابق، ج 18، لوحة 83.

الصدد، أن القاضي شمس الدين حكى له أن الامبراطور ـ قال له: «أخطأتم فيما فعلت، والله أنه أكثر عرضي في المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل»[155]. وبعد ذلك عاد الامبراطور إلى عكا، ومنها إلى بلاده.

ويتضح مما تقدم أن ما قام به قاضي نابلس تنفيذاً لأوامر الملك الكامل محمد قد لاقى استنكاراً وعدم قبول من جهة المسلمين الغيورين على دينهم وعلى شعائرهم، بل أنها لم تلق أيضاً قبولاً من جهة الامبراطور المسيحي فردريك الثاني نفسه، ولقد أعلنها صراحة القاضي شمس الدين قاضي نابلس بأن ذلك لا يصح، وأنه من جهته لا يفعل مثل ذلك ولا يغير من طقوس شريعته إرضاء للمسلمين مثلما فعل القاضي معه. بل أنه قال له: «إن هذا أول شيء ينقص من قدرهم عنده، ألا وهو عدم احترامهم لشريعتهم».

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى دمشق، توغرت قلوب المسلمين بها على الملك الكامل محمد واجتاحتها حالة عارمة من السخط العام، لدرجة أن المسلمين أقاموا المآتم حزناً على تسليم القدس للصليبيين[156].

وأخذ الملك الناصر داود بن المعظم في التشنيع على عمه الكامل محمد وطلب من العالم الشيخ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزي الواعظ، أن يجلس بجامع دمشق للوعظ، ويندد بما فعله عمه الكامل، ويثير الناس ضده، وأمره أن يذكر في وعظه فضائل القدس، وما ورد فيها من الأخبار والآثار، ويوضح للناس العار والوصمة التي لحقت بالمسلمين من

---

(155) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 245، انظر أيضاً عن تفاصيل هذه الزيارة المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 231، العيني: المصدر السابق، ج 18، لوحة 82 ـ 83، الحنبلي: المصدر السابق، ص 313، راجع أيضاً رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 335.

(156) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 432، أبو شامة: المصدر السابق، ص 154.

جراء ذلك التصرف. فنفذ ما طلب منه وكان يوماً مشهوداً لم يتخلف من أهل دمشق أحد[157]. وقد ورد في وعظه: «وانقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفت، ولو انقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، ولمثلها تتقطع القلوب من الحسرات»[158].

كما ذكر سبط بن الجوزي في مجلسه هذا، قصيدة تائية لم يورد المؤرخون منها سوى بيتان هما:

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات[159]

(157) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 245، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 141 ـ 142، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 222، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 233.

(158) سبط ابن الجوزي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(159) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 246، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 233. ويذكر المقريزي أن أبيات هذه القصيدة ثلاثمائة بيت ولكنه لم يذكر منها غير هذين البيتين فقط، انظر أيضاً ابن بهادر: المصدر السابق، لوحة 117، العليمي: المصدر السابق، ج 1، ص 358.

المعنى العام: يعبر الفقيه في هذه الأبيات عن أعظم مأساة في تاريخنا المجيد حتى أن المرء ليعجز عن وصفها فما كان من شاعرنا إلا أن يتحسر ويتألم فقد أصبح عاجزاً من شدة الألم... ولكن على ماذا يتحسر وما هو ذلك الشيء الذي يستحق التحسر؟ إنها أكرم بقعة من بقاع الأرض الطاهرة هي قبة المعراج والصخرة.. تلك التي كانت تنعم بنور الله فيفيض عليها نوراً وإشراقاً مفاخرة ما في الأرض من صخور وفي غمضة عين أقفرت هذه البقاع ممن يتلون كتاب الله في مدارسهم وفي تلك البقاع الطاهرة فأصبحت موحشة وخيم عليها الوجوم والحزن وبهذه الأبيات نرى الحسرة والألم قد بلغت مبلغها من هذا الفقيه.

ويذكر القاضي ابن واصل أنه كان حاضراً في هذا المجلس، فيصفه بقوله: «وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم، وحضرت أنا هذا المجلس»[160].

وهكذا أدرك الملك الكامل محمد أن الرأي العام الإسلامي كله ضد تسليمه بيت المقدس للصليبيين وأنه في مركز حرج لا يحسد عليه، ولذلك أخذ يدافع عن سبب لجوئه إلى هذا التصرف قائلاً: «ما أحوجني إلى هذا إلا المعظم»[161]. وقال أيضاً: «إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله»[162].

ولم يكتف الملك الكامل محمد بهذه المبررات، وإنما سير مبعوثاً خاصاً من جهته إلى البلاد الشرقية، وإلى الخليفة العباسي لتسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم نتيجة أخذ الفرنج القدس[163].

وجدير بالذكر، أنه على الرغم من المحاولات التي بذلها الملك الكامل محمد لتوضيح أسباب تسليمه القدس للصليبيين، فإن هذه المحاولات لم تفلح في تسكين قلوب المسلمين وتخفيف حزنهم الشديد، بل استمروا في غضبهم وحسرتهم على ضياع القدس بهذه الطريقة. ونجد بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين له مثل ابن واصل يحاولون تبرير ما فعله بأنه كان مضطراً إلى ذلك، حيث يقول: «ورأى الملك الكامل أنه أن

---

(160) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 245 ـ 246.

(161) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 432.

(162) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 243 ـ 244، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 230. ويرى رانسيمان أن ما قام به الكامل من رد قاصر لم يكن إلا سلوى تافهة. كما أن قوله بأنه لا زالت للمسلمين السيادة العسكرية في الإقليم لم يكن فيما يبدو عذراً كافياً. راجع رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 332.

(163) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 230.

شاقق الامبراطور ولم يف له بالكلية أن يفتح له باب محاربة مع الفرنج، ويتسع الخرق ويفوت عليه كلما خرج بسببه، فرأى أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خراباً ويهادنهم مدة، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء». ثم يذكر في موضع آخر: «علم الملك الكامل ـ رحمه الله ـ أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له، كان متمكناً من تطهيره من الفرنج واخراجهم منه»[164].

مهما كان الأمر، فعلى الرغم من كل الاعتراضات والانتقاضات التي وجهت إلى الملك الكامل محمد، فلا يمكن إنكار أن الهدنة التي عقدها من الامبراطور فردريك وفرت جواً من السلام العام بين المسلمين والصليبيين لمدة عشر سنوات. وأن هذا السلام مكن سلطان مصر من العمل على توحيد الدولة الأيوبية، والوقوف في وجه اعتداءات الدولة الخوارزمية الممتدة على طول الأطراف الأيوبية عند الرها، وكذلك دولة سلاجقة الروم المطلة من آسيا الصغرى على حلب والبلاد الفراتية[165].

وقد أتاحب هذه الهدنة فرصة كبيرة للفقهاء والعلماء لكي يشاركوا بجهود كبيرة في كافة مجالات الحياة في الدولة الأيوبية، وأن يكون لهم دور كبير في تصفية الخلافات التي كانت تنشأ من حين لآخر بين أبناء البيت الأيوبي في مصر والشام، وقد تحملوا في سبيل ذلك مشاق كثيرة للحفاظ

(164) ابن واصل: المصدر السابق، ج 4، ص 242 ـ 243، الحنبلي: المصدر السابق، ص 311، ويرى الدكتور/ سعيد عاشور أن الملك الكامل محمد عندما وافق على معاهدة يافا، كان بعيد التفكير، لأنه أدرك بثاقب نظره أن قيام الأمبراطور بتحصين يافا في ذي الحجة سنة 625هـ نوفمبر سنة 1228م أثناء سوء موقفه في المفاوضات إنما يشكل خطراً كبيراً يخشى معه اتفاق الأمبراطور مع بقية الصليبيين بالشام للقيام بعمل حربي ضده. ولا شك في أن المغامرة في حرب ضد الصليبيين كانت تعنى بالنسبة للكامل عندئذ وقوعه بين ثلاثة أعداء، هم: ابن أخيه الناصر داود من ناحية، والصليبيين من ناحية ثانية، ثم الخوارزمية الذين استنجد بهم الناصر داود من ناحية ثالثة. راجع سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص 117.

(165) مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر، القاهرة 1961، ص 65 ـ 66.

على وحدة البيت الأيوبي والجبهة الإسلامية، بل أن بعضهم قد دفع حياته ثمناً لتدخله لتصفية هذه الخلافات. ففي عام 635هـ/ 1237م توجه القاضي كمال الدين ابن العديم[166] رسولاً من حلب للتوفيق بين الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، والملك المظفر صاحب حماه، وقد بذل ابن العديم في سفارته هذه أقصى جهوده ليوفق بين الطرفين المتنازعين، ولكن أبى كل منهما أن يجيب صاحبه إلى ما يريد فاضطر ابن العديم أن يكتب بما جرى كتاباً إلى حلب، فجاءه الأمر بالتوجه إلى حلب[167] أما القاضي محمد الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي[168]، فكان له

---

(166) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن العديم الحنفي، القاضي، الأمير، الوزير، الرئيس الكبير، سمع الحديث وحدث، وتفقه وأفتى وردس وصنف، وكان إماماً في فنون كثيرة، وقد ترسل إلى الخلفاء والملوك مراراً عديدة، وهو صاحب كتاب تاريخ حلب في أربعين مجلداً. وكان جيد المعرفة بالحديث، أقام بدمشق في الدولة الناصرية المتأخرة، وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتر. توفى بمصر سنة 660هـ. انظر ياقوت: معجم الأدباء، ج 16، ص 5 ـ 57، أبو شامة: المصدر السابق، ص 217، أما ابن خلكان فلم يترجم له، ولكنه استشهد في مواضع كثيرة من كتاب زبدة الحلب ذاكراً إياه بالفقيه القاضي كمال ابن العديم. انظر: المصدر السابق، ج 7، ص 248.

(167) ابن العديم: المصدر السابق، ج 3، ص 235.

(168) هو يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حماد بن الجوزي القرشي التيمي، البكري الحنبلي، البغدادي، الفقيه الأصولي، الواعظ الصاحب الشهير، محي الدين أبو محمد، وأبو المحاسن، ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج، أستاذ دار الخلافة المستعصمية. ولد سنة 580هـ ببغداد وسمع بها من أبيه، ويحيى بن بوش، وذاكر بن كامل، وابن كليب، وأبي منصور عبد الله بن محمد بن عبد السلام، وابن المغطوش، وأبي الحسن بن محمد بن يعيش. وقرأ القرآن بالروايات العشر على ابن الباقلاني بواسط، واشتغل بالفقه والخلاف والأصول، وبرع في ذلك وكان أمهر فيه من أبيه، ووعظ في صغره على قاعدة أبيه وعلا أمره وعظم شأنه، وولى الولايات الجليلة. تولى الحسبة ببغداد، ثم روسل إلى ملوك الأطراف، فاكتسب مالاً كثيراً، وأنشأ مدرسة بدمشق، ووقف عليها وقوفاً متوفرة الحواصل، وأنشأ ببغداد بمحلة الحلبة مدرسة لم تتم، وبمحلة الحربية دار قرآن ومدفناً، ثم ولى التدريس بالمستنصرية، ثم ولى أستاذ دارية الدار، فلم يزل كذلك إلى أن قتل صابراً شهيداً بسيف الكفار عند دخول هولاكو ملك التتار إلى بغداد سنة 656هـ.
=

دور كبير في إرساء دعائم السلام بين بعض ملوك البيت الأيوبي، وهم الملك الكامل محمد، والملك الناصر داود، والملك الصالح إسماعيل. ففي عام 635هـ/ 1237م، توجه الملك الكامل محمد من مصر، بعد أن بلغه وفاة أخيه الملك الأشرف، إلى دمشق ومعه الملك الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب الكرك ونابلس والقدس، فحاصر دمشق حصاراً شديداً حتى أذعن صاحبها الملك الصالح إسماعيل للتسليم، بشرط أن يعوض عنها ببعلبك والبقاع وبصرى، فأجابه الملك الكامل إلى ذلك، وكان المتوسط بينهما في تقرير قواعد الصلح هو القاضي محي الدين يوسف المرسل من قبل خليفة بغداد المستنصر بالله، وقد كللت جهوده بالنجاح[169].

وقد استمر القاضي محي الدين ابن الجوزي يقوم بدور حمامة السلام بين كثير من أبناء بني أيوب ويزيل أسباب الخلاف بينهم، فقام خلال سنتي 636 ـ 637هـ/ 1238 ـ 1239م بالإصلاح بين الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأخيه الملك العادل الثاني[170]، ثم بين الملك الصالح إسماعيل والملك الناصر داود، وبين الملك العادل الثاني[171]. وأخذ يتنقل في سبيل هذا الصلح بين دمشق والقاهرة والقدس متحملاً مشقات عديدة آملاً في نجاح مسعاه في التوفيق والإصلاح بينهم. وقد انضم إليه في هذه المهمة

= انظر ترجمته في: ابن رجب: المصدر السابق، ج 2، ص 258 ـ 261، أبو شامة: المصدر السابق، ص 26، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 194، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 283، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 223 ـ 224، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 412 ـ 413، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 51، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 286 ـ 287.

(169) ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 150 ـ 152، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 160، ابن الوردي: المصدر السابق، ج2، ص 242 ـ 243، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 159، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 256 ـ 257، الحنبلي: المصدر السابق، ص 318.

(170) ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 216 ـ 247، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 283.

(171) ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 248 ـ 253.

القاضي جمال الدين يحيى بن مطروح[172]، ورافقه في جميع تنقلاته خلال هذه السفارة.

وهناك بعض من العلماء والفقهاء قد دفعوا حياتهم ثمناً لإصلاح ذات البين بين أبناء البيت الأيوبي، مثل العالم الفقيه عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ[173] فبعد وفاة السلطان الكامل محمد، اجتمع أصحاب المشورة بدمشق وكان بينهم أولاد شيخ الشيوخ، فخر الدين يوسف، وعماد الدين عمر، وقرروا تحليف الأجناد للملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل على

---

(172) هو أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح، الملقب جمال الدين، من أهل صعيد مصر. اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب عندما كان نائباً عن أبيه الملك الكامل بالديار المصرية ولما ملك الصالح نجم الدين أيوب مصر، رتبه ناظراً في الخزانة، ولما ملك الصالح نجم الدين دمشق سنة 643هـ سيره إليها وجعله وزيراً وأميراً، ومضى إليها وحسنت حالته وارتفعت منزلته. ويذكر ابن واصل عنه أنه عمل ناظراً للجيش سنة 636هـ بمصر. وكان فاضلاً جيد الشعر، وكانت ولادته في سنة 592هـ بأسيوط وتوفي سنة 649هـ بمصر ودفن بسفح جبل المقطم، انظر: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 788، أبو شامة: المصدر السابق، ص 187، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 6، ص 258 ـ 266. ويذكر ابن كثير أنه كان فاضلاً رئيساً كيساً شاعراً من كبار المتعممين، ثم استناب الملك الصالح أيوب في وقت على دمشق، فلبس لبس الجند. راجع: البداية والنهاية: ج 13، ص 194، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 247.

(173) هو أكبر أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين عمر بن حمويه. نال قسطاً وافراً من العلم، قام بالتدريس مكان والده بالمدرسة الصلاحية بجوار الشافعي وبالمشهد الحسيني وبمشيخة الشيوخ بالديار المصرية. وكان ملازماً للملك الكامل يجالسه ويتحدث معه في مختلف أمور العلم. وكان عماد الدين عمر يحضر المجالس العلمية التي كان الملك شغوفاً بها وكان يجمع العلماء والفقهاء للتناقش في المسائل العلمية والفقهية. ووصل عماد الدين إلى مكانة بارزة في مختلف أمور العلم والفقه مما أدى إلى أن الملك الكامل جمع له بين رئاسة العلم والقلم في سنة 633هـ، ولم يجتمع ذلك لأحد في زمانه. وإلى جانب مكانته الكبيرة في العلم كانَ عماد الدين فارساً ماهراً. تعلم فنون الفروسية والقتال، فحاز على فضيلتي السيف والقلم، فكان يباشر التدريس ويتقدم الجيوش. ومات سنة 636هـ. انظر: المقريزي: الخطط، ج 2، ص 33 ـ 34، ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 200 ـ 202، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 161 ـ 163، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 181.

ديار مصر. وأن يكون الملك الجواد مظفر الدين يونس ابن مودود بن العادل نائباً عنه بدمشق[174] ولكن أخذ الملك الجواد يعمل في الباطن للانفراد بملك دمشق حتى ملكها بالفعل في أواخر سنة 635هـ/ 1237م بعد أن كسر الملك الناصر داود وأجبره على الانسحاب منهزماً إلى الكرك[175]. ولكن الملك الناصر داود استطاع أن يثير مخاوف الملك العادل الثاني من قوة الملك الجواد بدمشق، ومن تطلعه إلى السلطنة، وأفهمه أيضاً أن المحرض على ذلك هو عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ الذي كان وراء تولية الجواد حكم دمشق[176].

فلما تحقق الملك العادل الثاني من استقلال ابن عمه الملك الجواد بملك دمشق وعصيانه بها، أحضر أولاد شيخ الشيوخ الأربعة ـ فخر الدين يوسف، وعماد الدين ومعين الدين حسن، وكمال الدين أحمد، وقال لهم: «أنتم ضيعتم علي ملك دمشق، فإن أبى الكامل فتحها وتوفى وهو مالكها، فسلمتم دمشق وخزائن أبي إلي الملك الجواد، فتغلب على دمشق وضيع الخزائن، وما أعرف عود دمشق إلي وانتزاعها من يد الملك الجواد إلا منكم»[177].

ولذلك التزم عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ للملك العادل الثاني بالذهاب إلى دمشق ليحضر الملك الجواد إليه لاستعادة دمشق منه على أن

---

(174) ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 171 ـ 173، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 160 ـ 161، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 261، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 303 ـ 305، الحنبلي: المصدر السابق، ص 389 ـ 390.

(175) سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 468، ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 192 ـ 193، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 272 ـ 273، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 305، الحنبلي: المصدر السابق، ص 390.

(176) أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 163، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 276 ـ 277.

(177) ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 198 ـ 199.

يعوض عنها اقطاعاً بمصر. فلما وصل عماد الدين إلى دمشق سنة 636هـ/ 1238م. واجتمع بالجواد وأطلعه على الأمر، وطلب منه أن يتوجه معه إلى مصر حتى يزول أسباب الخلاف بينه وبين ابن عمه الملك العادل الثاني، رفض الملك الجواد، واتفق في السر مع الملك الصالح نجم الدين أيوب بأن يسلمه دمشق مقابل أن يعوضه عنها الملك الصالح بسنجار[178] والرقة[179] وعانة[180]. فلما تم الاتفاق بينهما خاف الملك الجواد من الفقيه عماد الدين بن شيخ الشيوخ أن يفسد هذا الاتفاق عندما يصل الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى دمشق لهذا دس عليه الجواد من وقف له بقصة فلما أخذها. ضربه ذلك الرجل بسكين فقتله. وكان يوم دفنه يوماً مشهوداً حضر جنازته معظم الناس من الفقهاء وأهل الدين وغيرهم، لأنه كان تام العقل والفضل والكرم والبأس والرئاسة، وكان مقصداً لمن يفد إليه[181].

وهكذا دفع هذا العالم الجليل حياته ثمناً لتدخله للإصلاح والتوفيق بين أبناء البيت الأيوبي حفاظاً على وحدة المسلمين ويتضح لنا المشاق والصعاب التي كان الفقهاء يلاقونها في سبيل ذلك. ومع ذلك لم يمتنعوا أو يقصروا في أداء واجب عليهم ليسارعوا للمشاركة فيه حتى يظل البيت الأيوبي وحدة متماسكة لمواجهة ما تهب به الرياح وما تقذف به الأمواج.

ولم يقتصر دور الفقهاء والعلماء في تلك الفترة الزمنية بدور الوساطة

---

(178) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بلدة عراقية تتبع اليوم لواء الموصل تقع ما بين دجلة ورافد الخابور المتفرع من الفرات، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 262. أحمد عطية الله: المرجع السابق، المجلد الثالث، ص 513.

(179) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 59.

(180) عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت، يعد من أعمال الجزيرة وهي مشرفة على الفرات، وبها قلعة حصينة. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 4، ص 72.

(181) ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 200 ـ 202، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 8، ص 477، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 276 ـ 279، الحنبلي: شفاء القلوب، ص 391، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 313 ـ 314.

في الصلح بين أبناء البيت الأيوبي، بل تعدى ذلك إلى التصدي بعنف لبعض ملوك البيت الأيوبي الذين استهانوا وفرطوا في حق الإسلام والمسلمين بالتنازل عن بعض البلاد الإسلامية للصليبيين، مقابل مساعدتهم لهم ضد بعضهم البعض. وإنه لخير مثال لهذا ما قام به شيخ الإسلام والمسلمين، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام[182] في سنة 638هـ/ 1240م. إذ كان أحد الأئمة الأعلام وإمام عصره، وكان هو القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه. عارفاً بحقائق الشريعة وغوامضها. ولم ير مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق وشجاعة وقوة جنان وسلاطة لسان. وكان في الحق لا يخشى لومة لائم[183].

وقد قام في عام 638هـ/ 1240م بمواجهة صارمة للملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق[184] لمراسلة الصليبيين وطلب مساعدتهم للوقوف معه ضد ابن أخيه الصالح نجم الدين، على أن يمنحهم قلعة صفد وبلادها، وقلعة الشقيف وبلادها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل[185]. وكان الملك الصالح إسماعيل قد أذن للصليبيين بالدخول إلى دمشق وشراء السلاح، فأكثر الصليبيون من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق، مما أصاب المسلمين بالضرر فاشتد إنكارهم لما فعله الملك الصالح إسماعيل واستعظموه. وكان الشيخ عز الدين ابن عبد السلام حينئذ بدمشق، فأنكر هذا الأمر غاية الإنكار، وعندما ذهب إليه أهل الدين من

(182) انظر ترجمة العز بن عبد السلام ص 236، من هذا الفصل حاشية 1.

(183) أبو شامة: المصدر السابق، ص 216، السبكي: المصدر السابق، ج 8، ص 209.

(184) كان الصالح إسماعيل صاحب دمشق قد ولى الشيخ العز بن عبد السلام خطابة جامعة دمشق في ثالث ربيع الآخر سنة 637هـ انظر المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 299.

(185) أبو شامة: المصدر السابق، ص 170، ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 301 - 302، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 169، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 166، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 303، انظر أيضاً رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 377 - 378.

الدماشقة يستفتونه فيما فعله الملك الصالح، افتى بتحريم بيع السلاح للصليبيين، لأنهم أعداء الإسلام والمسلمين، وإنه في بيع السلاح لهم أضعاف لقوة المسلمين، وزيادة في تفوق الأعداء عليهم[186]. ثم قام العز بن عبد السلام بمحاسبة الملك الصالح إسماعيل على فعلته هذه من فوق منبر جامع دمشق يوم الجمعة، واتهمه بالخيانة، وكشف خطورتها للأمة، ثم قطع من الخطبة الدعاء له[187].

وقد انضم إلى الشيخ العز بن عبد السلام في انتقاد الملك الصالح إسماعيل، واستنكار ما أقدم عليه مع الصليبيين، شيخ المالكية بدمشق جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب[188]، وكان نتيجة لموقفهما هذا أن غضب عليهما الصالح إسماعيل، فعزل العز ابن عبد السلام عن خطابة جامع دمشق، واعتقله هو والشيخ جمال الدين بن الحاجب، ثم أطلقهما ولكن بعد مدة وألزمهما منازلهما، فخرج الشيخان من دمشق. فتوجه العز ابن

(186) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 304.

(187) أبو شامة: المصدر السابق، ص 170، ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 302، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 169، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 166، المقريزي: المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 338.

(188) هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، المعروف بابن الحاجب الأسنائي، الملقب جمال الدين، كان والده حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي، قرأ على الشاطبي والغزنوي، وسمع الحديث على الشاطبي، وأبي القاسم البوصيري، وإسماعيل بن ياسين، وأبي عبد الله محمد بن أحمد الأرتاحي. وأخذ الفقه عن أبي منصور الأبياري. اشتغل بالقاهرة في صغره بالقرآن الكريم، ثم بالفقه على مذهب الإمام مالك، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها في زاوية المالكية، وأكب الخلق على الاشتغال عليه، والتزم لهم الدروس وتبحر في الفنون، وصنف مختصراً في مذهبه، ومقدمة وجيزة في النحو، ومقدمة في التصريف، وَشرح المقدمتين، وكتابه في الفقه «جامع الأمهات» ولد بأسنا في سنة 570هـ. وتوفي بالإسكندرية سنة 646هـ. انظر ترجمته في أبو شامة: المصدر السابق، ص 182، ابن خلكان: المصدر السابق، ج 3، ص 248 ـ 250، الأدفوي: المصدر السابق، ص 352 ـ 357، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 360، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 234.

عبد السلام إلى مصر، فوصلها في سنة 639هـ/ 1241م، فاستقبله الملك الصالح نجم الدين أيوب استقبالاً عظيماً، يليق به، وولاه الخطابة والقضاء بمصر. أما الشيخ جمال الدين بن الحاجب، فإنه توجه إلى الكرك فأقام عند الملك الناصر داود مدة، ثم سافر إلى مصر وأقام بها إلى أن مات[189].

وقد قام العز بن عبد السلام في مصر بعمله على أحسن وجه، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر كما اتسم في قضائه بالعدل بين الناس، والصرامة في تطبيق الشرع والتسوية بن القوي والضعيف، حتى كانت سنة 640هـ/ 1242م عندما أسقط شهادة الوزير الصاحب معين الدين[190] حسن بن شيخ الشيوخ، ثم عزل نفسه من القضاء بمصر[191]. وخاف الملك الصالح نجم الدين أيوب أن يتركه بعد هذه الحادثة في الخطابة، فيشنع عليه مثلما فعل بدمشق، فعزله عن الخطابة، فأقام العز بن عبد السلام في بيته بالقاهرة مبتعداً عن القضاء والخطابة، وكرس كل جهوده لتدريس المذهب الشافعي

(189) أبو شامة: المصدر السابق، ص 170 ـ 171، ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 302 ـ 303، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 169، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 250، السبكي: المصدر السابق، ج 8، ص 210، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 304، وص 308 ـ 309، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 166 ـ 167.

(190) هو معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ، العالم الفقيه الذي جمع في يديه بين البراعة في العلم والأدب والمهارة في مختلف فنون الحرب والقتال والحنكة السياسية والذكاء الدبلوماسي، تولى مشيخة الشيوخ بالديار المصرية، وقام بالتدريس مثل بقية إخوته بالمشهد الحسيني، وبعثه الملك الكامل في الرسالة عنه إلى بغداد، ثم أقامه نائب الوزارة، إلى أن مات. فلما مات الكامل محمد استوزره الصالح نجم الدين أيوب سنة 637هـ، وجهزه على العساكر في هيئة الملوك إلى دمشق فقاتل الصالح إسماعيل حتى ملكها، ومات بها سنة 643هـ/ 1245م. انظر أبو شامة: المصدر السابق، ص 177، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 174، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 255، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 182، المقريزي: الخطط، ج 2، ص 34.

(191) لمزيد من التفاصيل عن حادثة إسقاط عدالة معين الدين وما تم فيها انظر: ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 303 ـ 304، السبكي: المصدر السابق، ج 8، ص 210، المقريزي: السلوك، ج 1، ص 312، انظر أيضاً: عبد الله إبرهيم الوهيبي: العز بن عبد السلام، القاهرة 1982م، ص 62 ـ 66.

بالمدرسة الصالحية[192] التي بناها الصالح نجم الدين أيوب. واستمر الفقيه العز بن عبد السلام مشاركاً بعلمه وفضله حتى عصر الملك الظاهر بيبرس.

ونخلص مما تقدم أن علماء الدولة الإسلامية وفقهائها طوال العصر الأيوبي كانوا يجاهدون بالنفس والمال والسلاح، ويبذلون قصارى جهدهم من أجل إرساء دعائم السلام بين أبناء البيت الأيوبي في مصر والشام حتى تتوحد الأمة الإسلامية وتستطيع مواجهة العدوان الصليبي وطرده من البلاد شر طردة، وحتى يفوتوا الفرصة على الصليبيين ولا يستفيدوا من قطع أوصال العالم الإسلامي بسبب المنازعات والخلافات الداخلية بين المسلمين، الأمر الذي يساعدهم في ازدياد سيطرتهم على بقية البلدان الإسلامية.

على أية حال، بعد انتهاء فترة الهدنة المنعقدة بين المسلمين والصليبيين، واستقرار الأمور داخل البيت الأيوبي، واصل جماعة الفقهاء والعلماء دورهم في الجهاد ضد الصليبيين بنفس الحماسة التي كانوا عليها من قبل، ففي عام 645هـ/ 1247م قام الأمير الفقيه فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بدور فعال وهام في قتال الصليبيين عندما عهد إليه السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالاستيلاء على كل من عسقلان وطبرية، فبدأ بغرض الحصار على طبرية واستولى عليها بالقوة من يد الصليبيين «وهدم ما استجده بها الفرنج من القلاع»[193]. ثم اتجه صوب عسقلان واستولى عليها بالقوة، وسلمها إلى نواب الصالح أيوب[194].

---

(192) المدرسة الصالحية بخط بين القصرين من القاهرة، كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقي، فبنى فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب هذه المدرسة. ورتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة في سنة إحدى وأربعين وستمائة، وهو أول من عمل بديار مصر دروساً أربعة في مكان. انظر المقريزي: الخطط، ج 2، ص 374 ـ 375.

(193) ابن واصل: المصدر السابق، ج 5، ص 378، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 176، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 358، انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 399.

(194) المقريزي: السلوك، ج 1، ص 327 ـ 328، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 258 ـ 259.

وعندما وصلت أنباء الحملة الصليبية السابعة على مصر ـ عام 647هـ/ 1249م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضاً بدمشق، فخرج بنفسه وجيء به إلى مصر محمولاً في محفة، ليشرف بنفسه على أعداد الجيش والأسطول، وبينما هو منشغل بهذه الأمور، إذا بالملك لويس يبعث إليه برسالة تهديد ووعيد يشرح له فيها سوء موقف المسلمين ويطلب منه التسليم فوراً. فاغرورقت عيناه بالدموع وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»[195] وأمر القاضي بهاء الدين زهير[196]. كاتب الإنشاء أن يتصدى لجواب تلك الرسالة.

فكتب البهاء زهير الجواب، وفيها يقول: بعد البسملة: «أما بعد. فقد وصل كتابك وأنت تهدد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا يفي علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأت عيناك، أيها المغرور، حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم.. فإذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، وكن على آخر سورة ص: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾. ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[197].

ومن خلال رد الجواب الذي أنشأه القاضي بهاء الدين زهير صاحب ديوان الإنشاء، نلاحظ أنه اتبع نفس أسلوب رسالة التهديد التي وردت من الملك الفرنسي لويس التاسع فكان الرد قوياً شجاعاً تتفجر كلماته بالتهديد والوعيد من جند الله المسلمين، وما ينتظر الصليبيين من سوء العاقبة، وذلك للتأثير على معنويات الملك الفرنسي وجنوده عله يرتدع وينثني عزمه عن مواصلة طغيانه وغروره.

---

(195) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 334.

(196) انظر ترجمة البهاء زهير ص 241، حاشية 1 من هذا البحث.

(197) سورة البقرة: آية 249، انظر المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 334 ـ 335.

أما الفقيه الأمير فخر الدين يوسف، فقد عهد إليه الملك الصالح نجم الدين أيوب، بالوقوف على رأس قوة على البر الغربي لفرع دمياط، لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر[198]. وعلى الرغم من أن قوات فخر الدين يوسف تصدت للصليبيين وقاومتهم، إلا أنها لم تنجح في مهمتها، واستطاع الصليبيون النزول على الشاطىء، مما جعل فخر الدين ومعظم رجاله يتحركون ليلاً إلى الضفة الشرقية من النيل حيث توجد دمياط[199]، فاستولى عليها الصليبيون «واستولوا على ما فيها من مؤن وآلات وأسلحة وأموال، صفوا عفوا»[200].

وقد تكدر خاطر الملك الصالح نجم الدين أيوب لتلك النتائج، ووبخ الفقيه الأمير فخر الدين يوسف ورجاله لعدم ثباتهم أمام الصليبيين. وسرعان ما اشتد المرض على الصالح نجم الدين، فحمل إلى قلعة المنصورة حيث استمر ـ وهو على فراش الموت ـ في تنظيم شؤون الجيش[201].

وفي تلك الظروف الحرجة توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب في 15 شعبان سنة 647هـ/ 23 نوفمبر سنة 1249م، فأخفت زوجته شجر الدر وفاته، وأرسلت إلى ولده توران شاه تستدعيه على عجل من حصن كيفا، في الوقت الذي تولت فيه القيادة مع قائد الجيش الأمير الفقيه فخر الدين يوسف. وتسرب خبر موت السلطان إلى الصليبيين فشجعهم ذلك على الهجوم على المنصورة مقر قيادة الجيش المصري، فاستشهد الفقيه فخر

(198) ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، لوحة 355 ـ 356، النويري: المصدر السابق، ج 27، لوحة 90.

(199) أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 178 ـ 179، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 263.

(200) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 336، جوانفيل: المصدر السابق، ص 95 ـ 99، وكذلك راجع رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 452 ـ 453.

(201) رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 454 ـ 455.

الدين قائد الجيش الأيوبي[202]. ضارباً المثل الأعلى في الشجاعة والذود عن حياض الإسلام والمسلمين، فجزاه الله عن شهادته في سبيله خير الجزاء على ما قدمت يداه في سبيل الدين ودولة الإسلام فنعم الخاتمة، خاتمة الشهادة.

وارتفعت الروح المعنوية للمجاهدين بوصول السلطان الجديد المعظم توران شاه وتيمن الناس بطلعته[203] وعندما أدرك الصليبيون صعوبة التحرك إلى القاهرة، عادوا إلى دمياط، وتخلل عملية الانسحاب معارك في نهر النيل بين السفن الصليبية والسفن الإسلامية، انتهت بهزيمة الجانب الصليبي وتكبده خسائر فادحة في العتاد والعدة[204]. وانقض المسلمون عليهم قتلاً وأسراً، فوقع الجيش الصليبي بأجمعه تقريباً بين أسرى وقتلى، وكان من جملة الأسرى الملك الفرنسي لويس التاسع نفسه، «واعتقل في دار ابن لقمان ووكل به الطواشي صبيح»[205].

وعقدت معاهدة بين الجانب الصليبي والجانب الأيوبي، على أن يدفع الملك لويس فدية مائتي ألف من النقود الذهبية الامبراطورية نظير الإفراج عنه[206]. كما قضى الاتفاق أن يتم تسليم مدينة دمياط بعد يوم 3 صفر سنة

---

(202) ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، لوحة 371، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 354، جوانفيل: المصدر السابق، ص 107 ـ 108، انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 456 ـ 459.

(203) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 351 ـ 352، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 346.

(204) ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، لوحة 371، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 354.

(205) ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، لوحة 370 ـ 371، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 6، ص 367، جوانفيل: المصدر السابق، ص 147 ـ 148، انظر كذلك: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 463 ـ 466.

(206) جوانفيل: المصدر السابق، ص 160 ـ 161، المصدر السابق، ص 160 ـ 161، انظر أيضاً: المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 363 فهو يذكر أن مقدار الفدية أربعمائة ألف دينار، أما رانسيمان يذكر أن مبلغ الفدية خمسمائة ألف ليرة تورناوية. المرجع السابق، ج 3، ص 467، مصطفى زيادة: المرجع السابق، ص 220 ـ 221.

648هـ/ 30 أبريل سنة 1250م[207].

وبعد تسلم دمياط من الصليبيين عم الفرح والسرور أنحاء الدولة الأيوبية وتجلى القاضي جمال الدين بن مطروح[208] معبراً عن تلك الفرحة بقصيدة يقول في آخرها متهكماً بأحلام لويس التاسع وأوهامه وغروره:

وقل لهم أن أزمعوا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح[209]

وانتهت بذلك آخر صفحة من صفحات الجهاد التي كتبت على الدولة الأيوبية لتحمل الدولة المملوكية عبء الجهاد ضد الخطر المغولي والعدوان الصليبي. وسوف نرى وقوف العلماء والفقهاء إلى جانب سلاطين الدولة المملوكية في مشوار الجهاد تقوية لنفوسهم وإبقاء على تحمسهم في مدافعة العدو.

بعد أن سلم الصليبيون مدينة دمياط إلى المسلمين في 3 صفر 648هـ/ 30 أبريل 1250م. وتم الإفراج عن الملك الفرنسي لويس التاسع توجه إلى عكا وقرر البقاء في الشام ليراقب الموقف في المنطقة خاصة بعد أن قتل المماليك الملك المعظم توران شاه في أواخر محرم من نفس السنة/ مارس 1250م وسيطروا على مقاليد الأمور في مصر[210] وكان الأيوبيون بالشام

(207) أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 182، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 265 ـ 266، انظر أيضاً: جوانفيل: المصدر السابق، ص 161 وما بعدها.

(208) انظر ترجمة جمال الدين بن مطروح فيما سبق ص 258 حاشية 2 من هذا البحث. دار ابن لقمان: تاريخية بمدينة المنصورة تنسب إلى القاضي فخر الدين إبراهيم ابن لقمان. وتقع بجوار مسجد الشيخ الموافي بالمنصورة ولا يزال جزء من هذا المبنى قائماً حتى اليوم، أحمد عطية الله: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص 319.

(209) أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 182، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 266، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 363، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 30 ـ 31.

(210) أبو شامة: المصدر السابق، ص 185، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، =

عندئذ قد جمعوا قواهم تحت زعامة الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب وزحفوا على مصر للقضاء على من بها من المماليك وبسط سيطرتهم عليها. ودارت معركة عنيفة بين الجانبين في 10 ذي القعدة سنة 648هـ/ 2 فبراير 1251م انتهت بهزيمة الأيوبيين وفرار الناصر يوسف ورجاله عائدين إلى الشام وتثبتت أقدام المماليك بمصر[211].

ولم يستمر العداء بين المماليك في مصر والأيوبيين في الشام طويلاً، إذ ظهر على مسرح الأحداث الخطر المغولي، وأخذ يجتاح بلدان الشرق الأدنى، مما استدعى طرح الخلافات والعداء جانباً، وتوحيد جهود المسلمين جميعاً لمواجهة هذا الخطر الداهم. فأرسل الخليفة العباسي للمستعصم بالله رسولاً على قدر عال من الحكمة والهيبة، هو الشيخ نجم الدين البادرائي[212] للتوفيق بين الملك الناصر الأيوبي ـ صاحب حلب ودمشق ـ

= لوحة 371، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص 48 ـ 50، أبو الفداء: المصدر السابق، ج 3، ص 181، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 266، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 190، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 358 ـ 361.

(211) أبو شامة: المصدر السابق، ص 186، ابن واصل: المصدر السابق، ج 2، لوحة 272، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 16 ـ 18، أبو الفداء: المصدر السابق، ج 3، ص 184 ـ 185.

(212) هو أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان بن أبي الحسن بن حسون البغدادي البادرائي الشافعي، مولده سنة 594هـ، وتوفي سنة 655هـ ببغداد. درس بالنظامية وبمدرسته التي أنشأها بدمشق في موضع دار أسامة. وكان شيخاً فاضلاً صالحاً، فقيهاً، كريماً متواضعاً. وكان رئيساً وقوراً، وكان يقدم للشام والديار المصرية رسولاً من قبل آخر خلفاء بغداد وهو الخليفة المستعصم. وبنى بدمشق مدرسته المعروفة بالبادرائية للفقهاء الشافعية، ووقف عليها وقوفاً حسنة، وجعل بها خزانة كتب جيدة، ثم رجع إلى بغداد وتولى بها قضاء القضاة على كرة منه لذلك، وكان رسول الخلافة إلى ملوك الآفاق فيّ الأمور المهمة وإصلاح الأحوال المستعصية لمزيد من التفصيلات عن ترجمته انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ص 198، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 209، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 407، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 160 ـ 161، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 57، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 269.

وبين الملك عز الدين أيبك السلطان المملوكي بمصر وقد استطاع بالفعل نجم الدين البادرائي بعد محاولات كثيرة أن ينجح في الإصلاح بينهما. وإزالة الخلافات. وكان ذلك في صفر سنة 651هـ/ ابريل 1253م[213].

وهكذا استطاع ذلك العالم الفقيه أن يوحد بين صفوف المسلمين في ذلك الوقت الحرج وأن يجمع كلمتهم ليقفوا صفاً واحداً وجبهة متحدة أمام تقدم جحافل المغول واحتمال تحالفهم مع الصليبيين الموجودين بالشام[214] وقد توجه الشيخ نجم الدين البادرائي إلى مصر مرة أخرى سنة 654هـ/ 1256م من قبل الخليفة المستعصم بالله، ليجدد الصلح الأول الذي عقد بين الملك الناصر يوسف الأيوبي والملك عز الدين أيبك، فلما علم عز الدين بقرب البادرائي من مصر، أرسل جماعة من أعيان الفقهاء لاستقباله استقبالاً يليق بمكانته واصطحابه إلى مصر. ولما حضر تقرر الصلح على أن يكون للملك عز الدين ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب من الساحل ببلاد الشام، مع ملك مصر وأن لا يأوي الملك الناصر عنده أحداً من البحرية[215] وقد شارك في إتمام هذا الصلح قاضي القضاة بدر الدين السنجاري[216] وهو

(213) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 55 ـ 56، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 22 ـ 23 أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 186، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 196، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 382 ـ 383 وص 385 ـ 386، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 69 ـ 70 وص 80.

(214) جوانفيل: المصدر السابق، ص 238، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 80 ـ 81.

(215) المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 397 ـ 398، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 122 وانظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 485 ـ 486.

(216) هو قاضي القضاة بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن علي الكردي السنجاري الشافعي، تولى قضاء القضاة بالديار المصرية مراراً. وكان كريماً جواداً، حصل له ولأتباعه تشتت ومصادرات توفي في 14 رجب سنة 663هـ. وكان متقدماً عند الملوك، وتولى الوزارة أياماً قلائل ودرس بالمدرسة الصالحية بالقاهرة، وسمع وحدث، انظر: أبو شامة: المصدر السابق، ص 234، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 260، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 541 ـ 542، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 411 ـ 412، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 219، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 313.

أحد أعيان الفقهاء بمصر ثم عاد النجم البادرائي إلى بغداد، وإن كانت مساعي النجم البادرائي لم تدفع أمراء البيت الأيوبي للمشاركة في حرب المغول إلا أن المماليك وقفوا لصد جحافل المغول والانتصار عليهم في موقعة عين جالوت عام 658هـ/ 1260م[217] ذلك النصر الذي كان أحد أسبابه موقف الفقهاء والعلماء في الهاب حماس الجند وحثهم على الجهاد وإزالة الخوف من قلوبهم ورفع معنوياتهم وزيادة ثقتهم بالله وبأنفسهم تماماً مثلما كانوا دائماً يفعلون على مر سنوات الصراع الإسلامي الصليبي فهذا هو موقف الفقهاء والعلماء المسلمين في كل زمان ومكان.

وقد قام السلطان سيف الدين قطز عقب معركة عين جالوت باسترداد دمشق من أيدي المغول وبإعادة الحياة في بلاد الشام إلى مجراها الطبيعي مرة أخرى بعد أن تعهد ولاتها بالتبعية لسلطان المماليك في مصر، والدعاء للسلطان المملوكي قطز على المنابر[218].

وفرح المسلمون في كل مكان لهذا النصر المبين الذي تحقق على أيدي المماليك في مصر، فدقت البشائر، وأقيمت الزينات بكل مكان وخاصة بالقاهرة التي كانت تنتظر قدوم البطل المظفر سيف الدين صاحب هذا النصر العظيم. وأخذ الشعراء في كل مكان ينشدون قصائدهم ابتهاجاً بهذا النصر، ونذكر هنا أنه حينما وصل خبر هذا النصر إلى دمشق وكان بها آنذاك الحافظ المؤرخ شهاب الدين أبو شامة[219] المقدسي أنشد مبتهجاً بذلك قائلاً:

---

(217) لمزيد من التفصيلات عن معركة عين جالوت راجع: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج 2، ص 1133 ـ 1139، حامد غنيم، المرجع السابق، ج 3، ص 32 ـ 37.

(218) أبو شامة: المصدر السابق، ص 208 ـ 209، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 59 ـ 60، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 234، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 248 ـ 252.

(219) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس أبو محمد وأبو القاسم المقدسي، الشيخ الإمام العالم الحافظ المحدث الفقيه المؤرخ، المعروف =

«غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ولكل شيء آفة من جنسه»[220]

ولكن شاءت إرادة الله أن تحول دون وصول سيف الدين قطز مصر. إذ وثب عليه الأمير بيبرس البندقداري وجماعته فقتلوه في طريق العودة. وفي اليوم التالي وصل بيبرس إلى القاهرة ونودي به سلطاناً على البلاد وتلقب بالملك الظاهر[221] وكان السبب في ذلك أن بيبرس طلب من المظفر أن يوليه نيابة حلب، فلم يرضى المظفر بذلك بعد أن وعده بها، لهذا استاء بيبرس من موقف قطز، وخاف كل منهما من الآخر وأضمرا السوء لبعضهما البعض، فأسرع بيبرس وجماعته وأنهى حياة البطل قطز في 16 ذي القعدة سنة 658هـ[222].

وجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية لم تسعفنا بمادة علمية وفيرة

= بأبي شامة ـ شيخ دار الحديث الأشرفية، ومدرس الركنية، وصاحب المصنفات العديدة المفيدة، وله اختصار تاريخ دمشق في مجلدات كثيرة، وله شرح الشاطبية، وله الرد إلى الأمر الأول، وله في المبعث وفي الإسراء، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وله الذيل على الروضتين وغير ذلك ولد في سنة 599هـ بدمشق، وختم القرآن حفظاً في صغره، ثم أخذ في معرفة القراءات السبع والفقه، والعربية، والحديث، وأيام الناس ومعرفة الرجال وغيرها من العلوم، سافر إلى بيت المقدس وإلى مصر، واجتمع بشيوخ مصر والقاهرة ودمياط والإسكندرية، ثم لزم الإقامة بدمشق عاكفاً على ما هو بصدده من الاشتغال بالعلم وجمعه في مؤلفاته والقيام بفتاوى الأحكام وغيرها. تفقه على الفخر بن عساكر، وابن عبد السلام، والسيف الآمدي، والشيخ موفق الدين ابن قدامة، وسمع جماعة من المشايخ والعلماء من أصحاب أبي الوقت، والحافظ السلفي، وأبي الفرج الثقفي، وأبي طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعي. وتوفي بدمشق سنة 665هـ. انظر ترجمته لنفسه في كتابه الذيل على الروضتين، ص 37 ـ 45 ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 1، ص 527 ـ 529، السبكي: المصدر السابق، ج 8، ص 156 ـ 168، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 264 ـ 265، العيني: المصدر السابق، ج 2، ص 13 ـ 15، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 317.

(220) أبو شامة: المصدر السابق، ص 208، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 246.

(221) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 68 ـ 70، بيبرس الدودار: المصدر السابق، ج 9، لوحة 40 ـ 41، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 62 ـ 63.

(222) أبو شامة: المصدر السابق، ص 210، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 60 ـ 62، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 3، ص 207، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، =

توضح موقف العلماء والفقهاء من القوى الصليبية الموجودة في بلاد الشام في الفترة المعاصرة لبداية حكم المماليك في مصر. في الوقت الذي أثرت فيه تلك المصادر المكتبة التاريخية بمادة طيبة عن موقفهم ودورهم في الجهاد ضد الغزو المغولي على منطقة الشرق الأدنى الإسلامي. لعل ذلك ناجماً عن مدى اهتمام هذه الصفوة المختارة بخطورة المغول وكثرة جيوشهم وأعمالهم الوحشية تجاه أهالي البلدان التي يغيرون عليها أكثر من خطورة الصليبيين عليهم، هذا فضلاً عن حالة الضعف التي انتابت الصليبيين في الشام حينئذ جعلتهم لا يقدرون على مواجهة المسلمين وإنما حاولوا كسب ودهم في صراعهم ضد المغول خاصة بعد أن ذاقوا الأمرين من وراء غزوهم للبلدان الصليبية في بلاد الشام. ولذلك أصبحت عملية التقارب بين المسلمين والصليبيين أمر طبيعي وأدى إلى السماح بعبور المسلمين عبر الأراضي الصليبية أثناء تقدمهم لمحاربة المغول ولعل ذلك كان سبباً لعدم وجود دور واضح لأولئك الفقهاء والعلماء في صد الوجود الصليبي في الشام باستثناء بعض الجهود القليلة التي بذلها نخبة من العلماء والفقهاء لمواجهة التحديات الصليبية الموجودة في المنطقة والعمل على وحدة الصف الإسلامي والتقارب بين أولى الأمر في شتى أنحاء الدول الإسلامية. فكان من المواقف الهامة التي سجلها التاريخ في هذا الشأن والتي تدل على مدى أهمية الدور الذي قام به الفقهاء والعلماء ومدى صلابته، وتمسكهم بالبحث عن الحقيقة دون الخوف من سطوة حاكم أو قوة سلطان، ذلك الموقف الذي وقفه الشيخ عز الدين بن عبد السلام أثناء مبايعة الملك الظاهر بيبرس بالسلطة، فبعد أن بايعه كل الأمراء والعساكر والأعيان رفض عز الدين بن عبد السلام مبايعته حتى جاء إليه من شهد بأن بيبرس قد أعتق[223]، لأن الشيخ ابن

= ص 235 ـ 236، ابن دقماق: المصدر السابق، ج 3، ص 63 ـ 65، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 434 ـ 435، انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 539.

(223) ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 1، ص 595.

عبد السلام كان يعلم أن بيبرس كان من مماليك الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري، فخاف أن يكون ما زال مملوكاً ولم يعتق. فحضر إليه من شهد أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان قد اشتراه واعتقه، وجعله من جملة مماليكه وقدمه لما رآه فيه من فطنة وذكاء[224]. وبعد أن اطمأن الشيخ عز الدين إلى صحة موقف الظاهر بيبرس قام بمبايعته ورغم ذلك لم يتخذ بيبرس منه موقفاً معادياً وإنما كان يضع نصائحه وفتاويه نصب عينيه حين يبت في أمور البلاد.

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى حرص الفقهاء والعلماء على إبراز الحق وإعطائه لصاحبه مما يساعد على استقرار الأمور داخل المجتمع الإسلامي ويعمل على إزالة العوائق التي قد تحول دون استمرار عملية الجهاد الديني ضد أعداء الله.

وعندما استتبت الأمور في الداخل للسلطان الظاهر بيبرس وجه جهاده ضد الصليبيين سنة 661هـ/ 1262م وهاجم الناصرة وعكا، ثم بدأ هجومه الشامل عليهم في سنة 663هـ/ 1265م فاستولى على قيسارية ويافا وعثليث وأرسوف[225].

وقد أكد المؤرخون المعاصرون للفترة موضوع البحث وعلى رأسهم ابن عبد الظاهر أن الفقهاء والعلماء قد اشتركوا مع السلطان الظاهر بيبرس في هذه الفتوح خاصة في فتح أرسوف[226].

كما أننا عثرنا لأول مرة منذ بداية الحروب الصليبية على نص تاريخي

---

(224) ابن الفرات: المصدر السابق، ج 7، ص 81 ـ 82، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 95.

(225) ابن عبد الظاهر: المصدرَ السابق، ص 158 ـ 162 وص 230 ـ 243، بيبرس الدودار: المصدر السابق، ج 9، لوحة 58 ـ 59، 69 ـ 70، النويري: المصدر السابق، ج 28، لوحة 362.

(226) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 238 ـ 242، النويري: المصدر السابق، ج 28، لوحة 366، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 529.

ذكره المؤرخ ابن عبد الظاهر يبين صراحة اشتراك النساء المسلمات في معارك الجهاد ضد الصليبيين، فهن يشتركن مشاركة فعلية في ميدان المعركة، فذكر بأنهن كن يسقين الماء في وسط القتال عند فتح أرسوف، ويجررن المنجنيقات إلى الأماكن التي يحددها القادة ليسهل على الجند استخدامها. ولعلنا نستنتج من ذلك بأن شدة تحميس الفقهاء والعلماء للناس ودعوتهم لهم للجهاد في سبيل الله ربما كانت السبب القوي وراء اشتراك النساء المسلمات في المعركة والتي كلل الله جهود المسلمين فيها بالنصر المبين. وقد نظم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر[227] بهذه أبياتاً في وصف هذه الفتوح:

لا يحسب الناس قيسارة ضعفت وأسلمت نفسها من خبقة رهبا
لكنها بذيول النصر قد علقت وقد أتته لعكا تطلب الحسبا

(227) هو القاضي محيي الدين، أبو الفضل، عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري، ولد بالقاهرة سنة 620هـ/ 1223م، وتوفي سنة 692هـ/ 1292م بالقاهرة وكان كاتباً ناظماً ناثراً، وهو والد القاضي فتح الدين محمد صاحب دواوين الإنشاء. وكان محيي الدين كاتباً في ديوان الإنشاء عندما تولى الظاهر بيبرس الحكم، وظل يعمل به طوال فترة حكم بيبرس 608 ـ 676هـ/ 1259 ـ 1279م. ثم أثناء، حكم أبناه الملك السعيد محمد بركة خان 676 ـ 678هـ/ 1277 ـ 1279م، والملك العادل سلامش 678هـ/ 1279م. ثم ظل محي الدين بن عبد الظاهر أيضاً في عمله طوال حكم الملك المنصور قلاوون الصالحي (678 ـ 689هـ/ 1279 ـ 1290م) وكذلك في عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون (689 ـ 693هـ / 1290 ـ 1293م) وكان له شأن أبان حكم هؤلاء الملوك جميعاً. ومن مؤلفاته: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية، كتاب الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة. لمزيد من التفاصيل عن ترجمته انظر: ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 1، ص 451 ـ 462، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 354، ابن حبيب: درة الأسلاك في دولة الأتراك، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية. تحت رقم 6170ح، لوحة 115 ـ 116، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 76، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 8، ص 38، السيوطي: حسن المحاضرة، ج 1، ص 570، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 421، الزركلي: المرجع السابق، ج 4، ص 98.

كذلك أرسوف لما حاز غايتها ما جاء مختطباً بل جاء مختطبا
لئن غداً آخذ الدنيا ومعطيها فإنه أحسن التعميم محتسبا[228]

وقد واصل الفقهاء والعلماء بعد ذلك جهادهم مشاركين للسلطان الظاهر بيبرس في حملاته من أجل استرداد حصون الشام من الصليبيين ومن ذلك ما أكدت المصادر على اشتراك الفقهاء والعلماء في فتح صفد عام 664هـ/ 1266م وقاتلوا الصليبيين بكل بسالة حتى تم لهم الفتح بفضل الله في شوال من السنة المذكورة[229] ويذكر القاضي ابن عبد الظاهر في ذلك الصدد قائلاً وفي ثاني شوال حصل الاهتمام بالزحف... فتحالل الناس، واجتهدوا، وكان قد عمل من النفط أشياء من السهام المطيبة والرماح، ففرق ذلك على الزراقين[230]. ووعد الحجارون أنه من أخذ أول حجر كان له مائة دينار، وكذلك الثاني، والثالث، إلى العشرة. وأمر حاشيته بأن يلازموا

(228) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، ج 9، لوحة 70، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 398.

المعنى العام للشعر: هنا يريد شاعرنا وقاضينا أن يمحو أي شك قد يتبادر إلى الذهن في ضعف قيسارية وانهيارها أمام قوة هذا القائد وأنها قد أسلمت نفسها خوفاً ورهبة منه... كلا فالحقيقة غير ذلك فقيسارية بانضوائها تحت لوائه قد أحرزت النصر وليؤكد ذلك بين أن قيسارية قد أتته وهو في عكا داعية إياه تطلب الحسب وتريد قرابته والعيش في كنفه... ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل أن أرسوف قد لحقتها وانضمت إليها.

(229) عن تفاصيل فتح صفد انظر:
ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 254 ـ 263، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 116 ـ 118، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 4، ص 3، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 260 ـ 261، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 545 ـ 548، العيني: المصدر السابق، ج 1، ص 421 ـ 422، رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 550 ـ 551، انظر أيضاً: King: Op. Cit., pp. 260-261.

(230) الزراقين: جمع زراق، ومعناها رامي النفط من الزراقة وهي الفتحة الموجودة في أعلى البرج. المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 598 حاشية 2،
Dozy, R: supplement aux dictionnaries arabe, 2Vols, Lieden, 1881, t, I. pp. 587-588.

مواضع قتالهم، ولا يشتغلوا بخدمته. وشرع الناس في أمر الزحف من العشاء، وكان قد وصل جماعة من الصلحاء للغزاة، وكذلك الشيخ الصالح قاضي قضاة الحنابلة بدمشق[231]، فحركت الطبلخانات[232] السلطانية نصف الليل، وركب السلطان، وهجم خندق الباشورة فقاتل الفرنج قتالاً شديداً، وابتلى المؤمنون ابتلاء شديداً، واستشهد جماعة من المجاهدين، وصار الإنسان يرى رفيقه يقتل، فيجره، ويقف مكانه. وتكاثرت النقوب...[233].

---

(231) هو شيخ الجبل الشيخ العلامة، شيخ الإسلام، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، شمس الدين أبو محمد الحنبلي، الفقيه الإمام الزاهد الخطيب، قاضي القضاة. أول من ولي قضاء الحنابلة بدمشق وتدريس الأشرفية بالجبل، وقد سمع الحديث الكثير، وحدث نحواً من ستين سنة. ولد في المحرم سنة 597هـ/ 1200م بسفح قاسيون. وتوفي سنة 682هـ/ 1283م. سمع من أبيه، وعمه الشيخ موفق الدين، وبإفادتهما من عمر بن طبرزد، وحنبل، وابن اليمن الكندي.وأبي القاسم الحرستاني، وابن ملاعب وجماعة. وأجاز له الصيدلاتي، وابن الجوزي وجماعة. وتفقه على عمه شيخ الإسلام موفق الدين، وأخذ الأصول عن السيف الآمدي، ودرس وأفتى. وأقرأ العلم زماناً طويلاً، وانتهت إليه رئاسة المذهب في عصره. بل رئاسة العلم في زمانه. وكان معظماً عند الخاص والعام، عظيم الهيبة لدى الملوك وغيرهم، كثير الفضائل والمحاسن، حج ثلاث مرات، وحضر الفتوحات، ولي القضاء مدة تزيد على اثني عشرة سنة على كره منه، ولم يتناول معلوماً، ثم عزل نفسه في آخر عمره. وكان قد ولي قضاء القضاة سنة 664هـ/ 1265م على كره منه ولولاه لراحت أملاك الناس لما تعرض إليها السلطان. وممن أخذ عنه العلم الشيخ تقي الدين بن تيمية: انظر ترجمته في ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 320، ابن حبيب: المصدر السابق، لوحة 74، ابن رجب: المصدر السابق، ج 2، ص 304 ـ 310، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 360، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 376.

(232) الطبلخانات: هي طبول متعددة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص تدق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب وهي من الآلات العامة لجميع الملوك والذي ذهب إليه بعض المحققين أن السر في ذلك أن في أصواتها تهييجاً للنفس عند الحرب وتقوية الجأش كما تنفعل الإبل بالحداء ونحو ذلك:

القلقشندي: المصدر السابق، ج 4، ص 8 ـ 9.

(233) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 258، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 546.

وكذلك اشترك الفقهاء والعلماء مع السلطان بيبرس في فتح حصن شقيف أرنون سنة 666هـ/ 1268م[234] إذ توجه إليها السلطان، فنزل عليها يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب/ ابريل فأقام منجنيقين، ورمى بهما ثاني يوم وصوله، ووصل المشايخ الصالحون والعلماء مثل الشيخ شمس الدين الحنبلي قاضي القضاة بالشام، والشيخ تقي الدين بن الواسطي[235]، وغيرهم من الصلحاء، واجتهد كل واحد منهم في الجهاد على قدر حاله[236].

ولم يقتصر دور الفقهاء والعلماء في سنة 666هـ/ على مشاركة الظاهر بيبرس في فتوحه للحصون الصليبية بالشام، بل شاركوه أيضاً في المجال الدبلوماسي كنوع من أنواع الجهاد بما لديهم من قوة في الاقناع ولباقة الحديث فخرج القاضي ابن عبد الظاهر في 10 شوال 666هـ/ 1267م بتكليف من السلطان الظاهر بيبرس على رأس سفارة إلى عكا بهدف الاتفاق مع

---

(234) عن تفاصيل فتح الشقيف سنة 666هـ انظر: ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 296 ـ 299، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 125 ـ 126، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 265، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 564 ـ 566، العيني: المصدر السابق، ج 2، ص 20 ـ 21، انظر أيضاً: رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 556 ـ 557.

(235) هو الشيخ إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الواسطي الصالحي، ثم الدمشقي الحنبلي، الفقيه العابد، شيخ الإسلام، تقي الدين أبو إسحاق، ولد سنة 602هـ. سمع بدمشق من ابن الحرستاني، وابن البناء، وابن ملاعب، والشيخ موفق الدين، وجماعة غيرهم، وسمع ببغداد من الشيخ أبي الفتح بن عبد السلام، وابن الجواليقي، وله إجازة من جماعة من الأصبهانيين والبغداديين. تفقه في المذهب، وأفتى ودرس بالمدرسة الصباحية بقاسيون نحواً من عشرين سنة. وبمدرسة الشيخ أبي عمر، وولي في آخر عمره مشيخة دار الحديث الظاهرية. توفي بدمشق سنة 692هـ. انظر ترجمته في: الذهبي: العبر في خبر من غبر نشر صلاح الدين المنجد الكويت 1960 ـ 1966، ج 5، ص 375، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 353، ابن حبيب: المصدر السابق، لوحة 117، ابن رجب: المصدر السابق، ج 2، ص 329 ـ 331، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 75، الصفدي: المصدر السابق، ج 6، ص 66، ابن تغرى بردى: المنهل الصافي، ج 1، ص 122، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 419 ـ 420.

(236) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 296، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 565.

صاحبها على عقد هدنة بين الطرفين. وكان الفقيه ابن عبد الظاهر يحمل هدية من السلطان تتضمن عشرين أسيراً من أسرى أنطاكية. ولكن بعد مشاورات ومناقشات بين الطرفين لم تسفر هذه السفارة عن شيء، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه بين الطرفين[237].

وهكذا نرى أن فئة العلماء والفقهاء كانت لا تمل ولا تكل في كفاحها المستمر ضد أعداء الدين وإنما كانت دائماً تبذل قصارى جهدها من أجل رفع شأن الإسلام في كافة المجالات دون ارتباط بعضهم بشخصية معينة من شخصيات الحكام المسلمين فالكل عندهم سواء، فبعد أن انتقل السلطان الظاهر بيبرس إلى جوار ربه عام 676هـ/ 1277م ظلوا يواصلون مسيرتهم في الجهاد ضد الصليبيين فاستمروا في عصر السلطان المنصور قلاوون 678 - 689هـ/ 1279 - 1290م يؤدون دورهم في كافة مجالات الحياة إلا أننا لم نعثر في بطون المصادر على معلومات كثيرة عن مواقف هؤلاء الفقهاء من الجهاد ضد الصليبيين في هذه الفترة الزمنية وإنما نتف وشذرات مبعثرة هنا وهناك. إذ ضنت علينا المصادر بذلك ولكننا من خلال تتبعنا لمواقفهم من الجهاد ضد الصليبيين منذ بداية الحروب الصليبية نؤكد أنهم لم يقل جهادهم مع السلطان قلاوون عن جهادهم في الفترات السابقة لعصره لأن حميتهم الدينية مستمرة ولم تتوقف، وبالتالي لم يتوقف عطاؤهم للجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين في عصر قلاوون. ولعل ما يؤكد هذا القول. أن تلك المصادر المعاصرة تعرضت لجهاد هؤلاء الفقهاء والعلماء مع السلطان قلاوون أثناء

---

(237) عن تفاصيل هذه الهدنة انظر: ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 332 - 333، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 571، العيني: المصدر السابق، ج 2، ص 32 - 33، انظر أيضاً:

Eracles: Op. Cit., pp. 457-458, King, Op. Cit., pp. 264-265, Stevenson: Op. Cit., pp. 341-342.

انظر كذلك: سعيد عاشور: المرجع السابق، ج 2، ص 1150 - 1151.

جهاده ضد المغول، وخاصة في موقعة حمص سنة 680هـ/ 1281م[238].

وبعد أن انتصر السلطان قلاوون على المغول، هاجم حصن المرقب[239] سنة 684هـ/ 1285م وهو حصن الاسبتارية الذي كان الفرنج يعتقدون أنه لا يدرك بحول ولا حيلة، وإن الحيلة منه قليلة[240]، ولكن استطاع المسلمون الاستيلاء عليه في يوم الجمعة 18 ربيع الأول من السنة المذكورة[241].

وبعد أن منّ الله على المسلمين بهذا الفتح العظيم شارك الفقهاء والعلماء في أفراح هذا النصر، وقام القاضي محي الدين بن عبد الظاهر بنظم قصيدة يهنىء فيها بهذا النصر ومن أبيات هذه القصيدة قوله:

يا فاتح الحصن الذي فتحه ... يأتي به شكرك من يشرب

حصن عظيم القدر في سيره ... لمن مضى قبلك لم يكتب[242]

---

(238) عن تفاصيل موقعة حمص انظر: ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص 44، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 241 ـ 247، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 4، ص 14 ـ 15، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 326 ـ 327، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 312 ـ 313، ابن دقماق: المصدر السابق، ج 2، ص 94 ـ 95، العيني: المصدر السابق، ج 2، ص 272 ـ 282.

(239) المرقب: قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) وعلى مدينة بانياس، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 5، ص 108.

(240) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 77.

(241) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 80، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 4، ص 21، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 323، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 727 ـ 728.

(242) انظر القصيدة كاملة في ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، 82 ـ 83.

المعنى العام: يمدح الشاعر هذا الفاتح العظيم يأتيه الثناء وينهال عليه من أبعد الأماكن ومن أقصاها فقد اهتز له المشرق والمغرب فهذا يثرب على الرغم من بعد ميسيرها إلا أن شكرها قد وصلك، وليس هذا بقليل عليك فقد فتحت حصناً عظيم القدر كريم السيرة لم يستطيع أحد ممن كان قبلك فتحه فقد كتب الله فتحه على يديك.

وإذا كان المؤرخون قد غفلوا عن ذكر أية معلومات صريحة تفيد باشتراك عدد من الفقهاء والعلماء في فتوح المسلمين لحصن المرقب أو الأسبتارية، فقد ذكروا صراحة اشتراكهم مع الجيش في الجهاد ضد الصليبيين عند فتح طرابلس عام 688هـ/ 1289م مثل القاضي نجم الدين الحنبلي قاضي الحنابلة[243]. وقد أدرجهم المؤرخون ضمن: المتطوعة».

وكما هي عادة الفقهاء والعلماء بعد كل فتح كبير كانوا يشاركون في احتفالات النصر والفرحة التي تعقبه، فبعد فتح طرابلس قام العلامة شهاب الدين أبو الثناء محمود[244].

---

(243) هو أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الصالحي، قاضي القضاة، شيخ الإسلام نجم الدين أبو العباس بن الشيخ شمس الدين أبي عمر المقدسي الحنبلي، شيخ الحنابلة وابن شيخهم، ولد سنة 651هـ، سمع حضوراً من خطيب مردا، وسمع من إبراهيم بن خليل، وابن عبد الدايم، ولم يحدث وتفقه على والده. وكان فاضلاً ذكياً، وله قدرة على الحفظ، وله مشاركة في علوم كثيرة. ولي القضاء، وكان خطيب الجبل، وخطيب الجامع المظفري والإمامة بحلقة الحنابلة بجامع دمشق ونظر أوقاف الحنابلة، ودرس بأكثر المدارس. وكان يركب الخيل، ويلبس السلاح، ويحضر الغزوات. شهد فتح طرابلس مع السلطان الملك المنصور قلاوون. وكان مشكور السيرة، مهاباً، وقوراً في الدول. توفي سنة 689هـ بدمشق ودفن بقاسيون. انظر: النويري: المصدر السابق، ج 29، لوحة 48، الذهبي: المصدر السابق، ج 5، ص 360، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 338، ابن حبيب: المصدر السابق، لوحة 100، الصفدي: المصدر السابق، ج 7، ص 46، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 1، ص 330.

(244) هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سلمان بن فهد الحلبي، ثم الدمشقي الحنبلي. ولد بحلب سنة 644هـ، وهو الصدر الكبير، الشيخ الإمام العالم العلامة، شيخ صناعة الإنشاء الذي لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله في صناعة الإنشاء انتقل مع والده إلى دمشق سنة 654هـ وسمع بها من الراضي بن البرهان، وابن عبد الدايم ويحيى بن الناصح الحنبلي. واشتغل بالفقه على الشيخ شمس الدين بن أبي عمر بن قدامة المقدسي، وأخذ العربية عن الشيخ جمال الدين بن أبي مالك، وتأدب بالمجد بن الظهير وغيره. طلب الديار المصرية واشتهر اسمه وبعد صيته، وصار المشار إليه في الديار الشامية والمصرية، وكان يكتب التقاليد الكبار بلا مسودة. له تصانيف في الإنشاء وغيره، وكان كثير الفضائل، بارعاً في علم الإنشاء نظماً ونثراً، وقد مكث في ديوان الإنشاء نحواً من خمسين سنة بدمشق ومصر. ثم ولي كتابة السر بدمشق نحواً من ثمان سنين قبل وفاته. وتوفي سنة 725هـ. انظر ترجمته في: ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 2، ص 564 ـ 576، =

كاتب الدرج[245] بمدح السلطان قلاوون في قصيدة ذكر فيها هذا الفتح العظيم[246].

وبعد فتح طرابلس استولى المسلمون على بيروت وجبلة، وبذلك لم يبق للصليبيين ببلاد الشام عكا وصيدا وصور وعثليث[247]. فقام الصليبيون بالتودد إلى السلطان الملك المنصور قلاوون، وظلوا محافظين على الهدنة التي كانت معقودة حتى صيف 689هـ/ 1290م دون أن تكون هناك مناوشات حربية بين الطرفين أو أي محاولات لإفساد هذه الهدنة. ولكن وصلت جموع صليبية إلى عكا وفدت من إيطاليا سنة 689هـ/ 1290م أفسدت الجو بين المسلمين والصليبيين، إذ اندفعوا بكل حماس وتهور واعتدوا على المسلمين خارج أسوار عكا[248]، مما أنذر بتجدد نشوب الحرب بين الطرفين

= ابن كثير: المصدر السابق، ج 14، ص 124، ابن رجب: المصدر السابق، ج 2، ص 378، المقريزي: المصدر السابق، ج 2، ص 269 ـ 270، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج 9، ص 264 ـ 265، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 6، ص 69 ـ 70.

(245) كاتب الدرج: من موظفي ديوان الإنشاء. وكتاب الدرج هم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والإيمان والأمانات ونحو ذلك... وسمي هؤلاء الموظفون بكتاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق. المراد بالدرج في العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال. ويجوز أن يطلق على كتاب الدرج ـ كتاب الإنشاء لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها.
انظر: القلقشندي: المصدر السابق، ج 1، ص 137 وما بعدها، ج 5، ص 264 ـ 265، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 489 ـ 490.

(246) انظر القصيدة كاملة في: ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 295، 299، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 323 ـ 324.

(247) Grousset: Op. Cit., t. III., p. 745.

(248) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 177 ـ 178، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 301، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 1، رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، من ص 690 ـ 692.

Grousset: Op. Cit., t. III, p, 749.

الإسلامي والصليبي، خاصة وأن السلطان قلاوون قد غضب مما حدث للمسلمين وأقسم أن ينتقم من الصليبيين[249]. وأخذ يستعد في كل من مصر والشام للقيام بعمل حربي كبير ضد عكا ولكن القدر لم يمهله لتحقيق هدفه، فمات في 6 ذي القعدة سنة 689هـ/ نوفمبر 1290م[250] ولما توفى قلاوون جلس في الملك بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل (689 ـ 693هـ/ 1290 ـ 1293م) وكان الموقف يتطلب حينئذ السرعة في تولية سلطان جديد ليقود الحملة التي كان النصور قلاوون قد أعدها للثأر من الصليبيين في عكا. وقبل أن يتأهب الأشرف للخروج على رأس الحملة إلى الشام، أمر بجمع العلماء والقضاة والأعيان والقراء عند قبر أبيه وباتوا جميعاً هناك وقام الأشرف بتفريق أموال كثيرة على القراء والفقراء وتصدق بالكساوي[251] ثم أرسل بعد ذلك البريد إلى دمشق لاتخاذ الاستعدادات اللازمة لتجهيز آلات الحصار لعكا. ونودي في دمشق «الغزاة في سبيل إلى عكا»[252] واستجاب المسلمون لهذا النداء فخرجت جموع العامة والمتطوعة للمشاركة في الجهاد لفتح عكا، واشترك الفقهاء والعلماء والمدرسون والصلحاء في صفوف المتطوعة[253] وخرجوا يجرون عجل المنجنيقات، وخرج المسلمون

(249) ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 300 ـ 301، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 753 ـ 754، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 7، ص 324 ـ 325.

(250) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 178، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 4، ص 23، ابن الوردي: ج 2، ص 335، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 301 ـ 302، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 335، ابن دقماق: المصدر السابق، ج 2، ص 100 ـ 101، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 2 ـ 3.

(251) ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 307 ـ 308، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 764، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 17 ـ 18.

(252) ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 339، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 307، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 17.

(253) ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 339، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 17، ويذكر ابن تغرى بردى في النجوم، ج 8، ص 5 أن «المطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة».

من كل صوب وحدب والتقوا جميعاً مع العساكر المصرية القادمة من مصر مع الأشرف خليل وتقابلوا على عكا. فنازلوها يوم الخميس الثالث من ربيع الآخر سنة 690هـ/ 15 ابريل 1291م[254]، ونصبوا عليها المنجنيقات من كل ناحية، وتفانوا وأخلصوا في تشديد الحصار عليها.

وفي أثناء ذلك اجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري، فقرأه الشيخ تاج الدين الفزاري[255]، فحضر القضاة والفضلاء والأعيان وأكثروا من الدعاء للمسلمين بالنصر[256].

وهكذا شارك الفقهاء والعلماء في فتح عكا مع السلطان الأشرف

---

(254) أبو الفدا: المصدر السابق، ج 2، ص 24، ابن الفرات: المصدر السابق، ج 8، ص 111، النويري: المصدر السابق، ج 29، لوحة 55، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 17، انظر أيضاً:

King: Op. Cit., p. 292, Mills, Charles: A History of the Crusades for the Recovery and Possession of the Holy Land, London 1820, t. 2. p. 274.

(255) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء الدين أبو محمد الفزاري ـ الشيخ تاج الدين، الإمام العلامة شيخ الشافعية في زمانه، حاز قصب السبق دون أقرانه، ووالد الشيخ العلامة برهان الدين. كان مولده سنة 630هـ، وتوفي في ضحى الاثنين خامس جماد الآخر سنة 690هـ ـ بالمدرسة البادرائية بدمشق اجتمع فيه فنون كثيرة من العلوم النافعة، والأخلاق اللطيفة، وفصاحة المنطق، وحسن التصنيف، تفقه على شيخ الإسلام عز الدين أبي محمد بن عبد السلام، وروى البخاري عن ابن الزبيري، وسمع من ابن الليثي، وابن الصلاح. واشتغل عليه. وخرج له الحافظ علم الدين البرزالي أحد تلاميذه مشيخة في عشرة أجزاء عن مائة شيخ فسمعها عليه الأعيان. ومن تصانيفه: كتاب «الأقليد لدر التقليد» شرحاً على «التنبيه» ولم يتمه. وشرح «ورقات» إمام الحرمين في أصول الفقه، وشرح من «التعجيز» قطعة. وله على «الوجيز» مجلدات. انظر ترجمته في: الذهبي: المصدر السابق، ج 5، ص 367 ـ 368، ابن شاكر الكتبي: المصدر السابق، ج 2، ص 263، السبكي: المصدر السابق، ج 8، ص 163 ـ 164، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 344، ابن حبيب: المصدر السابق، لوحة من 106 ـ 107، ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 5، ص 413 ـ 414.

(256) ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 339. مع ملاحظة أن هناك خطأ مطبعياً في اسم الشيخ تاج الدين الفزاري حيث ورد في المتن شرف الدين الفزاري. وبالرجوع إلى كتب التراجم والمصادر المعاصرة تأكد لنا ان الاسم الصحيح هو تاج الدين وليس شرف الدين.

خليل بن قلاوون مشاركة فعلية في ميدان الجهاد ضد الصليبيين، وفي الوقت نفسه جلس بعضهم في الجوامع لقراءة القرآن والدعاء للمسلمين بالنصر ورفع راية الإسلام، وقهر أعداء الدين، وقاموا بقراءة صحيح البخاري على الناس المجتمعين بالجوامع حتى يزداد حماسهم لدى سماعهم الأحاديث الشريفة الصحيحة التي تحض على الجهاد في سبيل الله، والتي توضح أجر المجاهد، وثواب من استشهد دفاعاً عن الدين والوطن. وكان لهذا الدور الذي قام به الفقهاء والعلماء أثره الكبير في ازدياد حماس المسلمين ومصابرتهم على الأعداء، والاستماتة في القتال، حتى تحقق نصر الله وتم فتح عكا في «يوم الجمعة 17 جمادى الأولى سنة 690هـ/ 18 مايو 1291م»[257]. وذلك بعد أن دام حصار المسلمين لها أربعة وأربعين يوماً.

وبعد أن من الله على المسلمين بهذا الفتح العظيم، عاد السلطان الأشرف خليل إلى دمشق بجيوشه المنصورة. وخرج أهل دمشق جميعاً بكافة طوائفهم للقاء الأشرف خليل احتفالاً بهذا النصر الكبير وكان دخوله المدينة ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من جمادى الآخرة، وفي ميمنته الجيوش المنصورة، وكان يوماً مشهوداً لم يبق فيه أحد من أهل دمشق وما حوى من أهل البلاد إلا وقد خرج في موكب اليوم، وكل واحد في يده شمعة، وكذلك العلماء والقضاة والخطباء، والمشايخ، والنصارى، واليهود، وظلت دمشق نحو شهر وهي مزينة بالزينة المفتخرة[258].

وهكذا كانت الفرحة عظيمة بفتح عكا، وكما هي العادة بعد كل

---

(257) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، ج 9، لوحة 169 ـ 170، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 309 ـ 310، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 4، ص 25، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 337، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 340، ابن الفرات: المصدر السابق، ج 8، ص 112، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 765، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 20، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 8، ص 8، انظر أيضاً:

King: Op. Cit., pp. 295-296, Mills: Op. Cit., t. 3, pp. 275-276.

(258) العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 21.

انتصار، تبادل المسلمون التهاني، ووقف الشعراء يهنئون بهذا الفتح الكبير، وكان الفقهاء والعلماء نصيبهم في هذه الفرحة، فنظم الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود قصيدة في فتح عكا هنأ فيها بهذا الفتح، ونبه على زوال ملك الصليبيين على يد المماليك بعد هذا الفتح المبين. ومن أبيات هذه القصيدة:

«الحمد لله زالت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي

هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها ... في البحر للترك عند البر من أرب

لم يبق من بعدها للكفر إذ خرجت ... في البحر والبر ما ينجي سوى الهرب»[259]

وجدير بالذكر أن فتح عكا على أيدي المسلمين كان بمثابة الضربة القاضية للصليبيين في الشام، فبعدها استولى المسلمون في سهولة ويسر على البقية الباقية للصليبيين مثل صور وصيدا وانطرطوس وعثليث[260]. وكما قال ابن كثير في مؤلفه «ولم يبق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج إلا بأيدي

---

(259) انظر القصيدة كاملة في: ابن الفرات: المصدر السابق، ج 8، ص 115، ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 310، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 342، العيني: المصدر السابق، ج 19، لوحة 26.

المعنى العام للشعر: يحمد الشاعر ربه على زوال دولة الصلب فرحاً بهذا النصر الذي أحرزه الترك فعز دين الله ودين نبيه المصطفى على أيدي هؤلاء الترك. هذا النصر الذي لو أرادت الأمة رؤيته ولو في النوم لاستحيت من الطلب فبعد أن خضعت عكا للمسلمين وهدمت قواعد الصلب البحرية لم يبق لديهم إرب في هذه المدينة المفتوحة فلن يبق للكفر بعدها مكان فقد خربت وليس أمامهم سوى الهرب والنجاة بأنفسهم وإلا سيحيق بهم ما لا تحمد عقباه.

(260) ابن أيبك: المصدر السابق، ج 8، ص 312، أبو الفدا: المصدر السابق، ج 4، ص 25، ابن الوردي: المصدر السابق، ج 2، ص 337، ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 340، المقريزي: المصدر السابق، ج 1، ص 765، ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج 8، ص 8 ـ 11، رانسيمان: المرجع السابق، ج 3، ص 710 ـ 720، انظر أيضاً:
Grousset: Op. Cit., t. III, p. 762.

المسلمين، وأراح الله منهم البلاد والعباد»[261].

وهكذا كان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون هو آخر بطل من أبطال الجهاد ضد الصليبيين، وهو طارد آخر البقايا الصليبية من الشام. وبهذا طويت آخر صفحة من صفحات الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب الصليبي بعد قرنين من الزمان، في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). ومن خلال تلك الصفحات تعرفنا على دور الفقهاء والعلماء خلال فترة هذين القرنين من الزمان، فكان دوراً مشرقاً ناصعاً أكد لنا أن هذه الصفوة المختارة كانت دائماً سباقة لتلبية نداء الجهاد في كل زمان ومكان، ابتغاء مرضاة الله ورضوانه.

(261) ابن كثير: المصدر السابق، ج 13، ص 340.

obeikandl.com